وحيد القرن وعشر قصص أخرى

الكتاب : وحيد القرن وعشر قصص أخرى

الكاتب : أحمد ضياء الدين

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : سامح سرور

الطبعة : الأولى ٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2019/28029

الترقيم الدولي :978-977-6783-18-8

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وحيد القرن وعشر قصص أخرى

مجموعة قصصية

تأليف

أحمد ضياء الدين

مقدمة خارج السياق

دائما ما ترهقني كتابة مقدمة للكتاب ولا أعرف لماذا تكون مقدمة في حين أنها آخر ما تكتب به ، شردت طويلا وغصت هناك في أعماق الذاكرة حيث تستقر حدوتة من حواديت ستي الله يرحمها ، لا أعرف لماذا تذكرتها اليوم .. تحكي الجدة عن حكاية دارت أحداثها هناك في قريتنا حيث ولدت وعاشت واستقر جسدها تحت ترابها ، الحكاية تدور عن حافلة القرية التي تنقل أهلها إلى البندر .

في زمان غير الزمان كانت القرية منعزلة عن البندر وكان لزاماً على الناس أن يترجلوا لقضاء حوائجهم من المدينة حتى قرر الباشا – صاحب العزبة – اقتطاع جزء من يومية الفلاحين حتى يستطيع أن يشتري لهم حافلة تقوم بنقلهم إلى المدينة على أن يقوم الباشا بنفسه بقيادة الحافلة وكان قد عين أحد رجال الأمن من أهل القرية لتحديد من يستقل هذه الحافلة وجعل الأولوية لأغنياء ووجهاء القرية واستقر الحال على عدم انتفاع الفلاحين من الحافلة التي ابتاعها استقطاعا من قوت يومهم وأجرتهم .

لم يرتضي رجل الأمن هذا الظلم وتعاطف مع أهل قريته من الفلاحين ، وفي أحد الأيام الفارقة في تاريخ هذه القرية قرر رجل الأمن عدم السماح للباشا بقيادة الحافلة وقام بمصادرتها لصالح أهل القرية ومنع الباشا من قيادتها وطرده من القرية ، وأرسى قواعدا جديدة لحق استقلال الحافلة جعلت الكل سواء بسواء فالغني لا يتميز عن الفقير والرجل لا يتقدم عن الأنثى والأمي ينعم بنصيب المتعلم .

وتمر الأيام ويسوء حال الحافلة ويحاول أهل القرية الحديث مع رجل الأمن في حثه على إصلاحها وتطويرها ، ليخبرهم بضرورة فرض رسوم ركوب حتى يستطيع أن يفي بتكاليف النقل وأعباء أعمال الصيانة والإصلاح .. وافق الأهالي على مضض أو بالأحرى سكتوا لأن لم يكن لديهم خيار آخر فلقد كان خيارا واحدا إجباريا .

قام رجل الأمن ببعض الإصلاحات التي لا تُثمّن ما أنفقوه فلم يقبل أهل القرية بها ولجأوا إلى إمام المسجد – وكان مفوها فصيح البيان – لتفويضه في التحدث مع رجل الأمن علّهما يجدا حلا يرضي أهل القرية ، إلا أن كليهما اختلفا على من يقوم بقيادة الحافلة بعد إصلاحها .

توسط بينهما أحد أثرياء القرية العائد من سنوات الغربة وقد أثار حفيظته تعنت رجل الأمن وطمع إمام المسجد في قيادة الحافلة ليظهر تعاطفا مع أهل قريته ليلج في صراع مع رجل الأمن وإمام المسجد ، وما هي إلا أيام ويعود لغربته بعد أن قام رجل الأمن بفضح أمره من عدم حيازته لرخصة قيادة لعدم إكمال تعليمه أو حصوله على أي شهادات تعليمية رسمية فضلا عن سوء سلوكه ومسلكه المعيب .

واسترسلت جدتي في حكيها بأن أهل القرية لم يكن يعنيهم من يقود الحافلة ولكنهم أرادوا فقط للحافلة أن تسير ، ولم تذكر جدتي تفاصيل الصراع الثلاثي وما آل إليه ولكنها أخبرتني بأن أهل القرية أيقنوا أن لكل منهم مطامع ولن يأتي أحد بجديد ، فقرروا قبول استمرار رجل الأمن في قيادة الحافلة حتى وإن كان بها الكثير من الأعطال مع وعده بالعمل على إصلاحها وتطويرها ، فهم ما زالوا يرون فيه بأنه الوحيد القادر على تسيير الحافلة .

لم تكمـل جـدتي حكايتهـا ولكنـي لا زلـت أرى الحافلـة تحـت قيـادة رجـل الأمـن وأهـل القريـة عـلى عيبهـا صابـرون .

عـدت مـن لحظـات شرودي مقـررا عـدم كتابـة المقدمـة مكتفيـا ببقايـا ذكريـاتي عـن حدوتـة الحافلـة .

الكاتب ..

إهداء

-1-

قـرأت قديمـا عـن حيـوان وحيـد القـرن وهنـاك أسـطورة مصريـة تقـول أن وحيـد القـرن مـن الفصائـل المتطـورة للكائـن محجـوب عبـد الدايـم .....

وحيد القرن

منـذ أن غـادرت الـبراءة شـاباً يحمـل شـهادة الليسـانس مـن أحـد الجامعـات المصريـة وقـد اعتـدت عـلى اقتحـام البيئـات المحيطـة المختلفـة ، صادفـت الكثـير مـن الكائنـات بيـد أن كائنـا مـن بـين الكائنـات اسـتوقفني وجعلنـي أفكـر كثـيراً .. لم أعـرف مـا السـبب ، ربمـا شـكله .. أو تصرفاتـه ، أنـا لم أفكـر في ذلـك كثـيرا فلقـد رأيـت الكثـير مـن النـاس تقـف عنـد ذلـك الكائـن وتنظـر باشـمئزاز .. حسـنا لسـت وحـدي .

والـدي لم يقبـل يومـا مخالطـة الحيوانـات ولم يجلبهـم إلى منزلنـا الصغـير ، رأيـت الحيوانـات كثـيرا عـبر شاشـات التلفـاز وقمـت باللهـو معهـم في حديقـة الحيـوان ذات مـرة في إحـدى الزيـارات ، وأيضـا شـاهدتهم في حلقـات الرسـوم المتحركـة يتكلمـون ويأكلـون ويعيشـون مثلنـا معـشر بنـي البـشر ، ودائمـا مـا كانـت تؤكـد أمـي أن هـذا كلـه محـض خيـال ولا يوجـد حيوانـات تتكلـم مثـل الإنسـان ورددت كلـمات ترسـخت في ذهـن كل أبنـاء جيـلي أن اللـه كـرم بنـي آدم بنعـم الفهـم والإدراك والنطـق ، وأنـه جعلـه خليفـة في الأرض ليعمـل عمـلاً صالحـاً يسـير بـه إلى الجنـة .

تخرجـت مـن الجامعـة وكان لزامـاً عـليّ أن أتخـذ القـرارات بنفـسي ، مـات أبي الـذي حمـل أمانـة الإختيـار والقـرار وانحنـى قـوام أمـي احترامـا لسـنواتٍ عاشـتها في أداء رسـالتها نحـو زوجهـا وأبنائهـا .

كنـت مـن هـؤلاء الذيـن يطلـق عليهـم - دحيـح – لذلـك كان لي نصيـب مـن الوظائـف المقبولـة في أحـد البنـوك ، كنـت لا أهتـم إلا بالعمل واحتسـاء القهـوة واختـلاس النظـر إلى مؤخـرات العمـلاء .

كان عملي جيدا لكنه لا يروق للأستاذ حفظي مدير الفرع ، ربما لم أكن في مستوى فتحي ، فتحي نفسه يقسم بأنه لولا ضربة حظ في امتحان البكالوريوس لما حصل على الشهادة وتخرج ، حاولنا كثيرا معرفة ماهية ضربة الحظ ولكن لم تصل إلينا أية إجابات وربما لم يرسل لنا الإجابات وربما أرسلها ووصلت لنا ولكننا لم نفهمها .

أنا الآن أملك القرار ، لذلك قررت أن أقتني حيوانا أليفا ومألوفا لعلي أستطيع أن أعوض حرمان الصغير بفرمان الكبير .

ذهبت صبيحة يوم الجمعة إلى ميدان السيدة عائشة ، غصت في أمواج من الأجساد ، تزاحمت في أذني الكلمات ، اختلط على أنفي روائح لا يجب أن أقول عنها كريهة فالروائح الكريهة عطور فرنسية مقارنةً بما وصل إلى أنفي .

أدركت حكمة الله في أن يكون يوم القيامة موافقاً ليوم الجمعة ، هؤلاء البشر يجب أن يُفتَنوا ، يجب أن تقوم عليهم القيامة ، ويأتي إليهم المسيخ الدجال بمعجزاته وتزحف إليهم يأجوج ومأجوج فتقضي عليهم ، يأجوج ومأجوج لن يتأففوا من رائحتهم .

لملم الأستاذ حفظي أغراضه من المكتب بعد الحفلة ، بكى كثيرا أثناء الحفلة ، كان ينظر إلى فتحي بنظرات بُغض شديدة ، والأخير كان قد استلم أذن الأستاذ نظمي مدير الفرع الجديد وعلى شفتيه ترتسم إبتسامة أبغض منه ، وجّه نظمي التحية إلى حفظي واصطحب فتحي إلى مكتبه وانصرف حفظي وانصرفنا جميعا إلى العمل .

وفي العمل لا أهتم إلا بالعمل واحتساء القهوة واختلاس النظر إلى مؤخرات العملاء ، تمر عبير أمامي وهي تعرف أنني اعتدت النظر إلى مؤخرتها وأقسمت هي ألا تقطع لي عادة ، تختفي عبير من أمامي لأبحث عن غيرها ، اختلط علي الأمر أحيانا في التمييز بين أرداف الرجل وأرداف الأنثى .. ثلةٌ من عينات - الرجالة الطرية والنسوان القوية - لا

أعـرف لمـاذا تذكـرت فيلـم السـادة الرجـال للرائـع رأفـت الميهـي ، أعـرف أن السـينما تؤثـر في ثقافـة وسـلوكيات الشـعوب لكـن لم أكـن أعـرف أنهـا تؤثـر في جيناتهـم أيضـا ، ولكـن بطلـة الفيلـم فوزيـة كانـت - رجليهـا حلـوة - وليـس مؤخرتهـا !!!

اسـتطعت أن أخـرج مـن سـوق الجمعـة بالسـيدة عائشـة بمغنـم واحـد – فوزيـة – هكـذا سـميتها ، سـلحفاة قمـت بشرائهـا مـن أحـد الباعـة الـذي أقسـم أنهـا – نتايـة – وأنهـا وارد سـواحل جنـوب أفريقيـا ، وأقسـمت أننـي لا أثـق في كلامـه حتـى لـو كانـت ذي درقـة - طريـة – فلقـد اختلـط عـلي الأمـر في البـشر فـما بـال الحيوانـات .

كان أمامـي عميـل عجـوز حرصـت أن أنهـي إجراءاتـه ومطلبـه في أسرع وقـت فأنـا في العمـل لا أهتـم سـوى بالعمـل واحتسـاء القهـوة والنظـر إلى مؤخـرات العمـلاء ، لم يجلـس فتحـي عـلى مكتبـه كعادتـه ، هـو في مكتـب رئيـس الفـرع ، لا يتركـه وحيـدا .. ربمـا خوفـا عليـه مـن شـعوره بالغربـة أو ربمـا للعمـل أو ربمـا يطلعـه عـن ضربـة الحـظ التـي أبلتنـا بـه .

مللـت تواجـد فوزيـة في المنـزل .. هـي لا تتحـرك كثـيرا .. لا تتفاعـل معـي .. لم أجـد فيهـا ونيسـا وأحيانـا لم أجدهـا أصـلا ، دائمـا مـا تكـون أسـفل الركنـة بجـوار التلفـاز ، أهديتهـا إلى أولاد أختـي وفرحـوا بهـا كثـيرا ، سـألوني عـما إذا كانـت - راجـل ولا سـت – أجبتهـم بـأن عليهـم أن يصطحبوهـا إلى الطبيـب لأنهـا تشـعر بوعكـة صحيـة هربـا مـن افتضـاح جهـلي وإجابـةً لهـم ايضـاً .. فالطبيـب حتـما سـيعرف إن كانـت ذكـراً أم أنثـى ، قـررت أن أشـتري حيوانـا آخـر .

ذهبـت صبيحـة يـوم الجمعـة إلى ميـدان السـيدة عائشـة ، غصـت في أمـواج مـن الأجسـاد ، تزاحمـت في أذني الكلـمات ، اختلـط عـلى أنفـي روائـح لا يجـب أن أقـول عنهـا كريهـة فالروائـح الكريهـة عطـور فرنسـية مقارنـة بمـا وصـل إلى أنفـي .

راقت لي أصوات العصافير ، طالما سمعت عن رقتها .. حتما ستكون رفيقة رقيقة بأصواتها المغردة ، اشتريت زوجا شكله حلو .. لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا فأنا لست خبيراً بهم ، وفي سوق الجمعة وكل أيام الأسبوع سلعة الكذب رائجة عن أي سلعة أخرى .

فتحي في مكتب رئيس الفرع وأنا لا أهتم سوى بالعمل واحتساء القهوة والنظر إلى مؤخرات العملاء ، وكعادته دائما خرج فتحي خلف نظمي عندما يتجه الأخير للمرحاض .. وقف أمام باب الحمام ولا أعرف ما السبب في ذلك ، هل يخشى عليه من أن أنظر إلى مؤخرته ، أنا لا أهتم بمؤخرة الرؤساء .. لا تروقني ، هل يشتاق للروائح الكريهة .. لماذا لا يذهب إلى سوق الجمعة إذن ؟؟؟

من قال أن العصافير كائنات رقيقة ، إنها غير نظيفة تملأ البساط أسفل القفص بقشور اللب وقليل من الريش ، إنها مفترسة ذات منقار حاد كاد يصرع إصبعي حين كنت أقوم بتغيير المياه ، على كل حال لقد انتهت قصتي معهم ، أهديتهم إلى أولاد أختي ففرحوا بها كثيرا ولم يسألوني في شيء ولكنهم أخبروني بأن فوزية ماتت .

سأشتري حيواناً آخر ، ليس معنى أني فشلت في إقتحام مجتمعهم مرتين بأني لن أستطيع .. ولكن سأنتظر حتى أسأل عن كل الأنواع لأختار ما أحتاج إليه فعلا وما سأنجح في التأقلم والتعايش معه ، فالشراء قرار والإختيار مهارة ، ويجب أن أحظى بالمهارة قبل اتخاذ القرار .

الآن حان الوقت لفقرة مرور عبير من أمامي تتمايل في مشهد تمثيلي مبتذل ولكنني أحببته ، فأنا في العمل لا أتقن سوى العمل واحتساء القهوة واختلاس النظر إلى مؤخرات العملاء .. فالمؤخرات الجميلة دائما ما تجعل القصة سعيدة أما المقدمات يمكن أن تقودنا لقصة دامية مؤلمة ، خرج فتحي أمام نظمي مشيراً إلى بعض أجهزة الحاسب الآلي

في ركـن الصالـة وعـاد ليشـير إلى زميـل لنـا وإلى أحـد أفـراد الأمـن ليرسـل في طلبهـم نظمـي ويقـوم بتوبيخهـم بشـدة وعنـف ، وعـاد نظمـي ليربـت عـلى كتـف فتحـي موجهـا إليـه عبـارات الإشـادة والإطـراء ، الجـدار خلفهـما معلـق عليـه لوحـة أسـعار العمـلات ولوحـة عـلى الجانـب الآخـر لحيـوان وحيـد القـرن يقـف وحيـدا وسـط مسـاحة صحراويـة شاسـعة ولا يبـالي .

قـرأت قديمـا عـن حيـوان وحيـد القـرن وهنـاك أسـطورة مصريـة تقـول أن وحيـد القـرن مـن الفصائـل المتطـورة للكائـن محجـوب عبـد الدايـم ، بيد أن الأخـير يسـتطيع أن يعيـش في مختلـف البيئـات ويتميـز بأنـه يسـتطيع التنـازل عـن كرامتـه وعرضـه لذلـك ظهـر في المشـهد الشـهير بقرنـين اثنـين وهـو يتغـذى عـلى نفسـه وعـلى الغـير ، أمـا وحيـد القـرن فإنـه يعيـش في البيئـات المتوسـطة أو الراقيـة ويتميـز بأنـه يتنـازل عـن كرامتـه فقـط دون عرضـه ويتغـذى عـلى الغـير فقـط دون نفسـه ... حسـنا سأشـتري وحيـد القـرن ، فطالمـا اسـتوقفني هـذا الكائـن وجعلنـي أفكـر كثـيرا ، ولكـن يجـب أن أعـود إلى البيـت أولا ليكـون القـرار سـليما ، فأنـا في العمـل لا أعـرف سـوى العمـل واحتسـاء القهـوة والنظـر إلى مؤخـرات العمـلاء .

تمت..

-2-

في خـان المعـز سـتجد أبـواب التاريـخ مغلقـة عـلى عظمـة أسراره ، ونوافـذ الحـاضر مفتوحـة عـلى مصراعيهـا تخـبرك بسـوء خفايـاه ، وسـتبحث عـن مخـرج للمسـتقبل فلـن تجـد سـوى جـدران معتمـة تحـول بينـك وبـين ضالتـك .

في خان المعز

في خـان المعـز الملتقـى .. التشـابك .. المزيـج .. التلاحـم ، تلاحمـت العصـور فجلسـت في الحـاضر أنظـر للـماضي مفكـرا في المسـتقبل ، وتمازجـت الأجيـال فرافـق الشـاب العجـوز وصاحـب الكبـير الصغـير ، وتشـابكت الثقافـات بـين شرقيـة وغربيـة وأصوليـة ومتحـررة ، وتلاقـى الأصدقـاء عـلى اختـلاف ألوانهـم مـن دفء الجنـوب إلى بـرد السـواحل .

في خـان المعـز التقيـت ثلاثـة أصدقـاء ممـن يعملـون خـارج البـلاد ، أحدهـم يعمـل في إحـدى البـلاد الأوروبيـة وتعـود أصولـه إلى محافظـة سـوهاج بجنـوب البـلاد ، والآخريـن يعمـلان بإحـدى البلـدان العربيـة .. أحدهـما مـن إحـدى محافظـات الوجـه البحـري والآخـر مـن الأسـكندرية ، كان اللقـاء مرتبـا في الميعـاد .. حماسـيا في اللقـاء .. عاديـا في الحديـث .. فاتـرا في الفـراق .

_ كيف أخباركم ؟ حقا مفتقد وجودكم جميعا إلى جواري .

_ يـا عـم .. إنـك لا تسـأل طـوال العـام ولا تعرفنـا إلا عندمـا نعـود إلى مـصر في أجـازة ونقـوم بالاتصـال بـك .

_ يا بكاش .. لن تتغير أبدا !!!

_ أبـدا واللـه ، ولكـن الأمـور في مـصر ليسـت عـلى مـا يـرام ، ودائمـا أعيـش في ضغـط وأدور في سـاقية كالأنعـام .

_ لماذا ؟ أنا أرى أن الأمور في مصر جيدة جدا .

_ بالفعل وأنا أيضا أراها بلدا لسه فيها الخير وكل شيء في المتناول

_ نعم ؟!!!

_ لا تندهش .. أنت لم تشاهد شيئا مما يحدث في العالم حولك .

_ طبعا .. صدقني يابني ، الأمور في كل العالم لا تختلف كثيرا عن مصر .

في خان المعز يحضر صعيد مصر مرتديا جلباباً وعمامةً بيضاء حاملا مزماراً يتمايل على أصوات الشيخ ياسين التهامي التي تصدح من مكبر الصوت داخل المقهى ويداعب طاولة جلس عليها ثلة من الإفرنج ، عرضه المبتذل أمامهم أتى بثماره وأخرجوا فئات نقدية مصرية تعبيرا عن إعجابهم بفنه ، اعتاد الإفرنج مثل هذه المواقف وكان بديل خير لهم عن جملة give me baqshesh .

_ كيف لك أن تقول هذا ؟! إن الحالة الإقتصادية هنا بلغت أدنى مستوياتها .

_ صدقني .. في أوروبا الوضع يسير من سئ إلى أسوأ .

_ هل تريد أن تقول أن هناك فقراء وهناك من لا يجد قوت يومه .

_ ليس بالضبط .. ولكن لو مارسوا أسلوب حياة المصريين لكان الوضع أسوأ كثيرا .

_ كيف ؟

_ أنتم هنا غارقون في المبالغة .. مفرطون في التكلف ، أخبرني كم تتقاضى من راتب حتى تقتني هذا الجوال ! هذا الشاب هناك .. أتراه ؟.. هذا الذي يقوم بتغيير النار وحجر الشيشة ، كم يتقاضى من أجر يومي حتى يدخن هذا النوع من التبغ الذي في يده !

_ إذن أنت لم تفهم المصريين بعد ولم تدرك ما هم فيه ، أنا إذا أحسست أن توفير قيمة الجوال ستحدث فارقا في حياتي بالتأكيد سأدخره ولكن الأمر لا يشكل فارقا .. بضعة آلاف من الجنيهات لن تمكنني من شراء شقة أو تساعدني على اقتناء سيارة ، لهذا أحاول أن أنفقها فيما يناسبها .

_ وهذا ما يجعلنا عالم ثالث ، لقد رُسمت سياسة لنا .. أن نكون

اســتهلاكيين وغــير منتجــين ونحــن كالتلميــذ النجيــب يســير عليهــا دون أدنى مخالفــة ، يــا صديقــي لقــد صيغــت قواعــد للعــالم منــذ عقــود وهــذه القواعــد تقــوده للفنــاء .

_ عشــان تبقــى عــارف بــس .. كل مــا يحــدث في مــصر كان بمخططــات خارجيــة .

_ يا اخوانا حرام عليكم .. هل تعلمون سعر البنزين الآن ؟

_ هل تعلم أنت أسعار الوقود في الخارج ؟

في خــان المعــز يمــر دومــا بائــع للجــوارب ويعــرض عليــك أفخــر خامــات القطــن المــصري عــلى حــد زعمــه ويقــوم ببيــع علبــة تحتــوي عــلى إثنــى عــشر زوجــا مــن الجــوارب بســبعين جنيهــا فقــط وده عشــان حضرتــك وشــك ســمح ودي ســاعة اســتفتاح !! يمــر حتــى ســاعة متأخــرة في الليــل عــلى مقاهــي منطقتــي خــان المعــز والحســين فقــط دون غيرهــما لأنــه يعلــم جيــدا أن ذات العلبــة لــن تبــاع بأكــثر مــن أربعــين جنيهــا عــلى مقاهــي التوفيقيــة ووســط البلــد ولــن يدفــع فيهــا زبــون مقاهــي الســيدة زينــب وعابديــن أكــثر مــن خمســة وعشريــن جنيهــا أو عــلى أكــثر تقديــر ثلاثــين جنيهــا .

_ أعلم أن الأسعار العالمية مولعة .

_ حقا .. مولعة أكثر من فستان رانيا يوسف كده .

_ شفت بنت اللذينة .

_ وهل تعرف عني أن مثل هذه الأشياء تفوتني !؟

_ هــل تعلــم أن الممثــلات الأجنبيــات لا ترتــدي مثــل ذلــك في المهرجانات الرسمية .

_ بالضبط هذه آفة في مجتمعنا .. الإسراف والتكلف .

_ مثل ما يحدث في نادي بيراميدز .

_ عندك حق .. لا يوجد لاعب مصري يساوي هذه الملايين .

_ بس سيبك انت .. هذا جيد حتى يوقف مسيرة النادي الأهلي .

_ مين ده بكره تشوف .. سيعود الأهلي أقوى مما كان .

_ يا جماعة انتوا بتتكلموا في إيه بس .. كرة القدم عندي أصبحت صلاح وكفى .

_ الله يباركله .. إنه يصنع ما لم تصنعه مصر في أي مجال آخر .

في خان المعز يأتي إليك رجل يرقص رقصة التنورة ذات الأصول التركية على أنغام موسيقى صاخبة لأحد المطربين الشعبيين ذى الأصول المطرية ، تنظر إلى دوران التنورة لتتوه في عالم من الصوفية وتتذكر أعلامها وتمر أمامك كلمات جلال الدين الرومي عن العشق الإلهي حتى تجد نفسك تكاد تسمو إلى السماء ثم تنصت للخلفية الموسيقية فتصحو من هذه الحالة لتهوى إلى غيابات جب ليس له قرار .

_ كيف تقول هذا ؟ إن مصر تصنع المجد غربا بشهادة الغرب أنفسهم .

_ نعم هل تعلم مكانة مصر وقدرها في دولة مثل الإمارات مثلا ؟

_ لعلمك .. لقد سمعت بأذني تقريرا فى التليفزيون الألماني يكشف عن اعتراف ميركل بأن المخابرات المصرية هي من أرشدتها لأن هاتفها مراقب من أمريكا .

_ طب تصدق إني سمعت كمان أن قبل أحداث سبتمبر كان هناك تقرير مخابراتي من مصر يكشف عن النية لتعرض أمريكا لضربة إرهابية قاصمة .

_ يا جماعة انتوا بتقولوا إيه بس ؟

_ لا لا .. أحداث سبتمبر ضربة داخلية من النظام الأمريكي لنفسه حتى يستطيع شن الحروب على الشرق بداعي الإرهاب .

_ آه يعني قصدك eat yourself before somebody eats you .

_ أيوه .. زي ما قال أحمد حلمي في الفيلم كده .

_ صحيح .. لماذا لم أسمع عن فيلم له منذ أكثر من عامين ؟

_ كيف يكون له مكان في ظل وجود أمثال محمد رمضان ومطربي المهرجانات ؟

_ يا عم وسط كله عايز الحرق .

_ بمناسبة الحرق .. لماذا تستخدم سكر دايت ، إنت عامل رجيم ؟

_ أيوة يا سيدي .. لقد تغير وزني في آخر ثلاثة شهور ليصبح تسعين كيلو جراما بدلا من مائة وعشرة من الكيلوجرامات .

_ فعلا .. الواد باين عليه أوي .

في خان المعز كل دقيقة تمر هي عيد من أعياد رواده ، ستقابل أحد الأشخاص سيساعدك في ركن سيارتك وما أن تنزل منها ستجده يهنئك قائلا كل سنة وانت طيب يا باشا .. ستقابل آخر يرتدي أفرولا أخضرا ممسكا بمكنسة قديمة يدوية الصنع يبتسم إليك مهنئا كل سنة وانت طيب يا بيه .. ستعترض طريقك إحداهن تجر وراءها صبيا صغيرا لتسارع في تهنئتك كل سنة وانت طيب يا أستاذ .. ستمر عبر هؤلاء لتأخذ مقعدك بإحدى المقاهي فيقابلك نادلها بعبارة كل سنة وانت طيب يا باشا ويودعك عامل الشيشة بنفس العبارة كل سنة وانت طيب يا باشا ، لا تسأل عن المناسبة فشعب خان المعز ودود للغاية لدرجة أنه يعتبر لحظة قدومك عيدا ولا ينقص العيد سوى الخروف الذي سيتحمل عنهم تكاليف العيد .

_ بس خلي بالك .. إن بعض الأنظمة الغذائية غير صحية كما أن هناك كثيرا من أدوية إنقاص الوزن ضارة وتسبب الأمراض .

_ مش فارقه .. هنا في مصر نحن نعيش بالستر فقط ويخيل إلى أنني إذا توجهت للطبيب سأجد نفسي معتلا بأمراض الكون .

_ يكفي أنكم تنعمون بمظلة صحية جيدة .

_ من ؟؟؟ نحن !!!

_ بالطبع .. المظلة الصحية الموجودة في مصر أفضل كثيرا من دول متقدمة مثل ألمانيا مثلا ، ولكن إدارة هذه المنظومة بها نوع من القصور .

_ هل أنت متأكد مما تقول ؟

_ـ فعلا .. هوه عنده حق .

_ كيف ؟

_ في كل البلدان الأوروبية وحتى أمريكا يكون أول نقاط البرنامج الإنتخابي لأي مرشح رئاسي هي المظلة الصحية والضرائب لأن بهما كثيرا من القصور والعبء على المواطن .

_ هل تعلم أن دولة مثل فرنسا قوام دخلها هي الضرائب .

_ وأمريكا كمان .

_ هل تريد أن تقول أن الضرائب المفروضة هناك أكثر من هنا .

_ بكثير جدا .

_ لا أظن ما تقوله صحيحا ، وأكبر دليل ما كشفته ثورة يناير عن حجم المأساة التي يعيشها المصريون .

في خان المعز لا تسير بمفردك أبدا إذا كنت من هؤلاء الذين يعرفون التاريخ من الأفلام العربية .. حتى لا تتخيل أن تيسير فهمي ستكشف عن وجهها ناظرة إليك في إعجاب من مشربية شرفتها .. ولا تظن أنك ستشاهد إحدى مواجهات المعلم الشبلي والمعلم الديناري بين فريد شوقي وعادل أدهم .. ولا تعتقد أنك ستلتقي بسلامة ناديا على جهاد ومحمود ، فكل ما حولك يجعلك تشعر بأنك تسير في الماضي .

_ لا تقل ثورة بل قل نكسة يناير .

_ النقاش في هذا الموضوع لن يجدي فأنا أعرف رأيك في الثورة مسبقا ولن أستطيع إثناءك عن ما أنت فيه .

_ـ يا جماعة .. الموضوع ليس ثورة أم نكسة ، لقد تلاقى المتنافران

.. الإرادة الداخلية مع الإرادة الخارجية .

_ ليس هناك مبرر أبدا بقبول الإرادة الخارجية .. فهذه خيانة .

_ هي أصلا إرادة شعبية داخلية فقط ولا توجد تلك التدخلات إلا في خيالاتكم وخيالات أمثال عكاشة وأحمد موسى .

_ أما الإتنين دول بياخدوا تريقة .

_ ولكن في كلامهم بعض من المعلومات الصحيحة .

_ـ هذا ما تريده أن يكون وليس ما كان .

_ـ يا صديقي العزيز ما يحدث حولنا والأمر الواقع يقول أن ثمة مؤامرات خارجية ومكائد دولية تدبر للدولة المصرية .

_ بالفعل ولكنها مؤامرات داخلية ومكائد حكومية .

_ لماذا تقول هذا ؟

_ـ عندما تشعر بمعاناة جفاف المعيشة ستؤيدني .. حين ترهقك فاتورة الكهرباء ستؤيدني .. حين تعاني من مستوى إبنك في التعليم ستؤيدني .. عندما تشعر بالإنكسار حين تنازلوا عن جزء من أرضك ستؤيدني .. حين تموت مع القتلى في الشوارع ستؤيدني .. حين يصرعك القتلة خارج السجون بحريتهم ستؤيدني ، صدقني الموضوع ليس أن ترى شيئا ولكن أن تشعر به .

_ـ إنني أرى وأشعر بكل ما تقوله ولكن الأمر معقد جدا ويطول شرحه .

_ـ وأنا لا أريد أن أسمع ترهات غير منطقية ولا تصدق ، وأتعجب من شخص مثلك كيف له أن يصدقها .

_ أنت لا تريد أن تسمع لأنك فقط شخص ضيق الأفق ولا تحب أن تسمع غير صوت نفسك وغير منفتح على الحقائق حولك .

_ـ وبعدين .. ما تصلوا على النبي يا جماعة .

في خان المعز لا تسير بمفردك أبدا إذا كنت من هؤلاء اللذين

يستقون معلوماتهم التاريخية من الكتب .. حتى لا تجد نفسك في مواجهة أحد زنادقة الفاطميين لتجد رجلا مخمورا معربدا في قارعة الطريق .. أو ربما تقابل رجلا يفعل الفاحشة بامرأة على مرأى ومسمع من المارة .. أو لعلك تسمع مناديا يسب الخلفاء والصحابة ، فكل شوارع خان المعز تفوح برائحة التاريخ .

_ ياللا نتمشى شوية .

_ ما أروع هذه البنايات .. أنظر لشموخها .

_ لقد قرأت أن هذه المنطقة بها أكثر المزارات الإسلامية في مصر .

_ نعم لأنها تضم آثارا منذ عصر الدولة الفاطمية والمماليك والعثمانيين والأسرة العلوية أيضا .

_ يا لها من رائعة حقا .

_ـ أنظر هناك .. تعالوا لنعرف ما المكتوب على هذا الباب .

في خان المعز احرص أن يكون معك كاميرا أو هاتفا لتلتقط بعض الصور مع الأصدقاء لتنضم إلى قائمة الذين مروا من هناك ، فقد يأتي اليوم الذي لا تجد ما تفخر به لترويه لأحفادك سوى أنك شاهدت هذا التاريخ .

_ مسجد وسبيل سليمان أغا السلحدار .

_ـ ده طلع أغا يا عم .

_ هل تعتقد يا محمد أنه سيأتي اليوم وتقرأ الأجيال القادمة لوحة على باب منزلي بإسمي ، دكتور وجدي صليب فلتس دكتور المخ والأعصاب أو حتى منزل الدكتور مجدي يعقوب دكتور القلب أو الدكتور أحمد زويل عالم الكيمياء ؟

_ـ أعتقد أننا في عصر لا يحترم الرموز العلمية أو الدينية .

_ـ عد إلى وطنك أولا ثم احلم بما شئت .

_ـ ليس بعد .

_ـ أما أنا أتمنى أن أعود ولكنني لا أملك جرأة اتخاذ القرار .

_ ولماذا ؟

_ لا أعلم .. حقاً أنا لا أعلم ، ربما الاعتياد على الغربة وربما الخوف من المجهول .

_ـ سبحان الله !!! أليست الأمور في مصر جيدة جدا ولسه فيها خير !؟

_ هاااااه ... هي بالفعل جيدة ولكن أنا الذي .. أقصد ربما .. ربما .. أنا لست بخير .

في خان المعز ستداعب عيناك عينيها في سكون وتنظر إلى الطفل بجوارها فتتمنى لو كان طفلكما ، ستشاهد أحد المشاهير يحوطه بعض البسطاء يتسولون منه صورة سيلفي ، ستشاهد لافتات بالية لحوانيت حرف مندثرة قبعت على رأسها كحفريات العصور العتيقة ، ستجد أبواب التاريخ مغلقة على عظمة أسراره ، ونوافذ الحاضر مفتوحة على مصراعيها تخبرك بسوء خفاياه ، وستبحث عن مخرج للمستقبل فلن تجد سوى جدران معتمة تحول بينك وبين ضالتك .

في خان المعز ستمسك بهاتفك عابثا بشاشته باحثا عن رقم هاتف زوجتك خشية انضمامه إلى سجل المكالمات الفائتة فتمسيك في ليلة نكداء ، وستنتهي جلسة الرفاق دون وفاق ولكنهم دائما وأبدا يعودون دون فراق .

تمت..

-3-

وتمـر الأيـام وتتـوه ذكـرى الرسـالة في أحداثهـا ، لتمـسي كغيرهـا مـن الرسـائل التـي تأتيـك مشـعلة الثـورات في نفسـك وتطـل عليـك ببريـق أمـل في حياتـك ، ثـم يخبـو وهجهـا وبريقهـا عندمـا تتراكـم عليـك رسـائل أخـرى وربمـا تسـقط تقادمـا بموجـب أحـكام الذاكـرة .

رسالة ستغير العالم

يـوم عمـل رتيـب كسـابقه وأسـبقه يمـر عـليّ بمكتبـي بإحـدى فـروع مكاتـب السـجل المـدني .. تـلال مـن الأوراق وملفـات العمـل التـي لا تنتهـي .. رجـال ونسـاء يمـرون أمامـي لقضـاء مصالحهـم وفي سـبيل ذلـك يتحدثـون في أمـور شـتى مـا لي شـأن بهـا ، ولكـن مـن مقتضيـات عمـلي أن أكـون ودودا متعاطفـا مـع الجميـع ، مـن يـأتي ليسـتخرج شـهادة وفـاة .. أربـت عـلى كتفـه وأقـدم لـه كلـمات المواسـاة ومشـاطرة الأحـزان ، ومـن يـأتي طالبـا شـهادة ميـلاد لمولـود جديـد .. أقـوم معانقـا مهنئـا عـلى جدارتـه ونجاحـه في إتيانـه هـذه المعجـزة في زمـن غلبـت فيـه المثبطـات المنشـطات ، ومـن يأتينـي طالبـا قيـدا عائليـا شـاكيا مـن روتـين المصالـح الحكوميـة والمغـالاة في طلباتهـا .. أهـدئ مـن روعـه متضرعـا إلى اللـه بصـلاح أحوالـه .

السـاعة الآن تجـاوزت الثانيـة مسـاء واليـوم يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة لذلـك يجـب عـليّ لملمـة مـا خلفتـه مصالـح النـاس ، أوراق لا تعنينـي .. بطاقـات شـخصية منسـية لأنـاس مـروا مـن هنـا .. كـروت تعريـف شـخصية قُدمـت تملقـا وتقربـا .. وأوراق نقديـة مكرمشـة ذات الفئـات المختلفـة !!

قمـت بجمـع البطاقـات الشـخصية لأضعهـا في درج خصصتـه لمثـل هـذه المنسـيات ، وأودعـت أوراق النقديـة في حسـاب صنـدوق تحيـا موظـف الحكومـة ، وهممـت بتجميـع كل قصاصـة ورق لإلقائهـا بسـلة المهمـلات .. إلا أن هنـاك ورقـة لفتـت إنتباهـي وكأنهـا دُسّـت عـلى تلـك المخلفـات ، فضـولي دفعنـي إلى قرائتهـا فـإذا هـي رسـالة مـن رجـل إلى إمـرأة يقـول فيهـا :

حبيبتي الغالية ...

حبنا سيجعلنا سعداء .. سنخلق معا في كل دقيقة سعادة نعيشها.. سنجعل سويا كل العقبات سلما نسمو به إلى ما نريده .. أنا وأنت روح واحدة في جسدين منفصلين .

حمقاء أنت إذا كنت تعتقدين في مثل هذه الخرافات ، إياك أن تكوني مثل هؤلاء النساء اللاتى يؤمنن بتلك الأساطير ، فنحن معشر الرجال لا نكون سعداء بالخرافات ولا نبني حياة على أوهام وأفكار حالمة ، يجب أن تعرفي أن لنا قواعد ثابتة لا تتغير وأود أن أخبرك إياها حتى تعملي على تحقيق السعادة لي ولنفسك .. فاسمعيها وافعلي :

١ _ إذا كان لديك مشكلة تريدين حلها فأتيني بها ، أما إذا أتيتني على سبيل الفضفضة ومصمصة الشفاه فهذا ليس عملنا ومن الأفضل لك أن تذهبي إلى صديقتك أو إلى الست الوالدة .

٢ _ إذا وجدتك حزينة ومهمومة ولاوية بوزك وسألتك ما بك ، إياك أن تردى عليّ بأنه لا يوجد شيء، لأننا معشر الرجال نفهم الكلمة بمعناها المجرد وسأفهم حينها بأنك على خير ما يرام .

٣ _ التلميح والتلقيح بالكلمات لا نستوعبه ونقف كالبلهاء أمام فصاحتكم البلاغية ، فإذا أردت شيئا اطلبيه بكل بساطة دون لف أو دوران .

٤ _ البكاء نعتبره ابتزازا غير مقبول ونتعامل معه بتجاهل شديد ، لذلك أنصحك بأن تضعي سلاح البكاء وتحصني بدرع المسكنة علك تصيبين ما تريدين .

٥ _ الكلمات التي قلناها منذ عام في جدال ما أو ربما شجار ما لا تحاولي تذكيري بها وترديدها مرة أخرى ، فنحن نطبق القانون بحذافيره فالكلمات المقالة لا ترد ولا تستبدل بعد ١٤ يوم .

٦ _ لا تسأليني السؤال السخيف هو انا تخنت ولا لأ ، لأن سؤالك هذا يعد إقرارا ببدانتك يريد أن يتوارى خلف مجاملتي لك .

٧ _ الرياضة بالنسبة للرجال محلها الملاعب والأندية وليست التسوق في محلات الملابس .

٨ _ إذا أردت أن أفعل شيئا لك فعلى الرحب والسعة ، أما إذا كنت ستلقنيني كيف أفعله .. فلتفعليه أنت إذن .

٩ _ إذا كانت كلماتي لك تحمل أكثر من معنى وكان هناك معنى يغضبك ، فتأكدي أنني أقصد المعاني الأخرى ، ولا داعي لأن تبني مخططات حرب بناء على تفسير خاطئ .

١٠ _ سعة ذاكرة الرجل تتناسب عكسيا مع المرأة فهي قصيرة المدى ولا يوجد أي تحديث لها ، فلا تحاولي استعادة ذكريات مر عليها أكثر من أسبوع .

١١ _ قيامي بمشاهدة المسلسل العربي ليس معناه أنني متابع له ، ولكن ربما لاحظت عدم حديثك أثناء المشاهدة وأردت أن أستمتع بهذه اللحظات .

١٢ _ جارتنا ليست سيئة وزميلتي في العمل ليست بفاحشة وبنت خالي ليست بمجنونة وبنت عمي ليست بثقيلة الظل ، هنّ فقط جميلات .

١٣ _ لا تحاولي أن تضعي علاقتنا في ميزان يا انا يا قعدة القهوة ، فمن الغباء أن تضعي نفسك في مقارنة محسومة .

١٤ _ مساعدتي لك في الأعمال المنزلية ليست حبا وحنانا كما تعتقدين ، لكنني أريد أن أخبرك بأنك مقصرة في واجباتك بطريقة لا تزعجك .

١٥ _ هناك أشياء تجدها النساء محفزة ولكن الرجال يرونها مستفزة ، أشهرها كلمة زي فلانة .

١٦ _ ابحثي عن حل مشكلة عصيان أبنائنا لك في تصرفاتك معهم ، فأنا ليست لدي هذه المشكلة .

١٧ _ عدم حديثي عن المستقبل ليس معناه أنني لا أبالي بشيء ، ولكن الرجال يخططون للمستقبل ولا يتكلمون عنه بينما النساء تتكلم كثيرا عن المستقبل وتعيش فيه دون أن تخطط له .

١٨ _ لا تعتقدي بأنني أعمى ولا أرى كيف يعامل صديقي زوجته ، ولكن ليتك تدركين بأني أرى ما وراء الجدران ولا أرى ما يحدث أمامها ، عندها ستتمنين أن أكون أعمى .

١٩ _ لحظات الشرود بالنسبة للرجل أكثر تعقيدا مما تبدو عليه ، فلا تحاولي إقتحامها .

٢٠ _ الرجال لا يجيدون الثرثرة كالنساء ، ويؤمنون بأن قليلا من الحديث يحفظ البيت والكثير منه يهدمه .

بالمناسبة أنا لا أتوقع ردا على رسالتي ، ويا ليتكم تعلمون معشر النساء أن قليلا من المواقف خير من كثير الكلمات .

هكذا كانت الرسالة .. رسالة من رجل ما إلى إمرأة ما في زمن ما .. ربما من كان يحملها المرسل وربما يكون المرسل إليه ، ولكن ماذا لو كان حاملها المرسل ، فمعنى هذا أنها لم تصل بعد إلى مبتغاها ، مثل هذه الرسالة ستغير العالم حين تعلم بأمرها النساء ، يجب أن تقع هذه الرسالة في يد إحداهن ولكن كيف لي أن أصل إلى صاحبها ليعيد إرسالها إلى صاحبته ، كيف لي أن أضعها في يد إحداهن ليعم الأجر والثواب ، فكرت أن أرسلها لزوجتي ولكنها فكرة مجنونة فأنا أريد تغيير العالم لا نهايته .

ربما عليّ أن أحتفظ بها ردحا من الزمن علّ يأتيني صاحبها باحثا عن ضالته ، إذن أين أحتفظ بها .. هل أقوم بإخفائها بالمنزل .. مستحيل ، فإذا رأتها زوجتي ستقوم قيامة العالم وسيظهر المسيخ الدجال على قسمات وجهها ، وستكوّر شمس أعمالي الطيبة معها ، وستنشر صحف نزواتي ، وسَتُسَعّر جحيمها وتُلقي بي وبرسالتي فيه غير مبالية بشيء ..

إنهـا زوجتـي وأنـا أعرفهـا .

حسـنا .. لا منـاص إذا مـن الإحتفـاظ بهـا في درج المنسـيات وأتمنـى مـن اللـه ألا تقـع في يـد أحـد الزمـلاء فتتـوه عنـي وتتـوه عنـي نتائجهـا .

ومـرت الأيـام ولم يـأت أحـد يسـأل عـن الرسـالة الضالـة ، وفي صبـاح كل يـوم أول مـا أفعلـه هـو الإطمئنـان إلى اسـتقرارها بمحبسـها الجديـد بعدمـا ظلـت حبيسـة بصـدر رجـل مـا في زمـن مـا ، إلا أنـه في صبيحـة أحـد الأيـام لم أجـد لهـا أثـرا ، بحثـت كتـيرا ولم أجدهـا ، اصطنعـت أحاديثـا مـع زمـلائي عـلّي أنتـزع اعترافـا مـن أحدهـم بسرقتهـا لكـن دون جـدوى .

وتمـر الأيـام وتتـوه ذكـرى الرسـالة في أحداثهـا ، لتمـسي كغيرهـا مـن الرسـائل التـي تأتيـك مشـعلة الثـورات في نفسـك وتطـل عليـك ببريـق أمـل في حياتـك ، ثـم يخبـو وهجهـا وبريقهـا عندمـا تتراكـم عليـك رسـائل أخـرى وربمـا تسـقط تقادمـا بموجـب أحـكام الذاكـرة .

تمت..

-4-

لم يهتموا بشرع أو قانون في أمور المرأة ، فكانت عاداتهم شِرعَتَهم وعُرفهم قانونهم ، فالمرأة عندهم ليس لها رأي ولا يؤخذ منها شهادة ولا تورث وليس لها حق في التعليم أو الاختيار فكانت كالدابة في البيت تُؤمَر لتُطيع وتُطلَب لتُمتَطَى .

كوتشينة

فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون .. دقيقة فقهية .. يا من إليك تضرعي ورجائي .. هل يجوز للأم أو الأب أن يختص إحدى بناته ليجعل نصيبها في الإرث مثل أبنائه الذكور ؟

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، أولا لا ينبغي على المسلم أن يأخذ معاني كلام الله إلا من أهل العلم بالقرآن وما يثبت يقينا في كتاب الله لا يجوز مخالفته بحكم تقنين أو حكم عادة أو حكم عرف تواتر بين الناس ، وجوابا للسائل الكريم نقول اتق الله في أولادك ولا تُحمّل نفسك وزرا ولا تُحملهم معك أوزارا ، فنصيب الذكر ونصيب الأنثى مذكور على وجه التفصيل فى آيات القرآن الكريم ولذلك نقول للمستمع الكريم أنه لا يجوز مساواة الأنثى بالذكر في الميراث حيث يعد ذلك مخالفة صريحة لتعاليم الدين وفقا لما هو ثابت بالقرآن والسنة .. والله أعلم .

إستمع جيدا إلى حلقة برنامج دقيقة فقهية بإذاعته المفضلة إذاعة القرآن الكريم ثم تنهد تنهيدة عميقة قائلا : لا حول ولا قوة إلا بالله .. القيامة هتقوم .. بت إيه اللي تورث بس زي الواد ، ثم يُخفِض من صوت جهاز الراديو بجانبه وينادي على ابنه الأكبر عدة مرات ، ويأتي الأخير مهرولا مجيبا وملبيا النداء .

_أيوه يا بابا خير محتاج حاجه .

_ أيوه يا بني عايزك في كلمتين كده .

_ أؤمر يا حاج .

_ الموضوع اللي اتكلمنا فيه قبل كده ، بكره نخلصه ان شاء الله

تلمع عينا خالد فور سماعه للخبر ، فطالما غازله أبوه بهذه الخطوة وطالما مَنّى نفسه بها وأشبع خياله من تمامها ، فيجيبه فورا بأنه سيعمل على تجهيز كل شيء حتى يتم كافة الإجراءات في يوم واحد ولا يُنهك والده المريض بأكثر من مشوار ، ويُنهي حديثه مع والده بقُبلة على يده ودعوات تتصنع الوفاء وأمنيات توارى خلفها تملقا طامعا .

يستقبل الحاج إبراهيم كلمات وقُبلات ابنه خالد بنظرات الود والقبول ويعود لجلسته المنفردة مصطحبا ذكرياته التي نشأت بقرية صغيرة بجنوب البلاد بمحافظة قنا ، تلك القرية التي لم تُعِر للنسوة اهتماما ولم تعترف يوما بالأنثى في جلساتها أو اتفاقاتها ، كانت الأسرة تقوم على الرجال والأم فقط وما دونهما تبقى دونهما فلا ترتقي لمنزلتهم ولم ينزلوها حُسن مقام إلا إذا أصبحت أما لرجال تدير المنزل مستخدمة الخدم والكلافين وزوجات أبنائها وبناتها غير المتزوجات .

لم يهتموا بشرع أو قانون في أمور المرأة ، فكانت عاداتهم شِرعَتَهم وعُرفهم قانونهم ، فالمرأة عندهم ليس لها رأي ولا يؤخذ منها شهادة ولا تورث وليس لها حق في التعليم أو الاختيار فكانت كالدابة في البيت تُؤمَر لتُطيع وتُطلَب لتُمتَطَى .

وفي صباح اليوم الثاني يصطحب خالد والده إلى مكتب محامٍ صديق أفهمه مرادهم ليقوم الأخير بكتابة عقود بيع صورية لقطعة أرض زراعية وسيارة وعقار خاصة والد خالد إلى خالد ويوصيهم بالتوجه إلى الشهر العقاري لتحرير توكيل في القضايا حتى تُضفي على العقود الصفة الرسمية بقضايا صحة توقيع بالمحكمة ، ليصطحب خالد مرة أخرى والده لمأمورية الشهر العقاري لتنفيذ المطلوب .

ويعود الإثنان إلى المنزل لتقابلهم والدة خالد بوجه عبوس غاضب محدثة زوجها :

_ برضو عملت اللي في دماغك يا ابراهيم .

_ طبعا .. مش احنا متكلمين في الموضوع ده قبل كده .

_ أيوه بس انا موافقتكش عليه .

_ أومال كنتي عايزه إيه .. عايزه ابن حامد وابن سمير اجواز بناتك يورثوا شقايا .

_ مش انا اللي عايزه الكلام ده ربنا اللي عايز كده .

_ بس بلاش كلام فارغ .. انتي تعرفي إيه انتي ، وبعدين ده كله رايح لابنك مش لحد تاني .

_ يا ابراهيم اتقي ربنا .. لو مش خايف على نفسك من ربنا خاف على ابنك ومتأكلوش حرام .

_ قلتلك خلاص الموضوع انتهى ومفيش كلام تاني فيه .. وهو برضو خالد مش هيقصر مع اخواته ، وانا وصيته بكده .

مرت لحظات النقاش سرمدية على خالد ، تخيل أن أمه لن تترك أبيه حتى تثنيه عن فعلته ، حتى تأتي كلمة أبيه الحاسمة بأن الموضوع انتهى ومفيش كلام تاني لتُعيده إلى زمانه المُعتاد ، ويُسرع في الإختفاء خلف باب حجرته خوفا من أمه ومحاولة مناقشة الأمر معه .

لم يهدأ خالد لأيام طوال بعد أن نال مرادة ولم يسعد به .. فلقد كان لكلمات أمه واقع مؤلم عليه ، وكأنه خاض حربا للنصر ولكنها تركت له جرحا نافذا له أثر أليم ، حاول تسكين ألم جُرحه بمراجعة أبيه متظاهرا بخوفه من أن تكون كلمات والدته حقا وعدلا ، إلا أن أباه أجابه بكلمات ثابتة نطق بها عن عقيدة راسخة لن تتغير مطمئنا ابنه بأن مثل هذه الدنيا كورق الكوتشينة ، لا يحق فيها للبنت أن ترث غيرها ولكن الصبي يرث من يشاء وقتما وكيفما يشاء .

لم تكن مهمة إبراهيم سهلة في نقاشه مع ابنه ، حيث كان كمن

يـزرع أرضـا جديـدة .. فهـو يقـوم بغـرس بذرتـه ويعمـل عـلى رعايتهـا لتُصنـع عـلى عينـه ولـن يتركهـا إلا حـين يجنـي ثمارهـا وتـؤتي أُكُلهـا .. فمهـد لعقيدتـه بحـرث عقـل خالـد عـن طريـق مَنَـل ورق الكوتشـينة ثـم غـرس بذرتـه وقـام بتسـميدها بمجموعـة مـن التعليـلات الضالـة عـن توقعـه مسـتقبلا أسـودا حـين يشـاركه أزواج أخواتـه في الإرث وكيـف سـيتحكمون في شـقاء عمـره وكيـف سـتكون مشـاركتهم قـدم شـؤم عـلى زوجاتهـم حـين ينعمـون في مـال لم يكـدّوا مـن أجـل الحصـول عليـه وأخـيرا يسـقي معتقداتـه بذكرياتـه مؤكـدا لـه أن عائلتـه مـا كانـت لتـورث أنثـى فالنسـاء لا تـرث ولكنهـا تُرعـى فـإذا قـام الرجـال برعايتهـن نِلـن كل حقوقهـن .

أزهـرت الحدائـق بعقـل خالـد ليمنـح أبـاه حصادهـا قائـلا : عنـدك حـق يـا بابـا وانـا مـش هقـصر معاهـم في حاجـه والـلي هيحتاجـوه هوفـره بـس كلـه يبقـى تحـت ايـدي .. متقلقـش يـا حـاج .. كلامـك هيمـشي عـلى الكبـير والصغـير ، تصبـح عـلى خـير .

تمت..

-5-

تمـر الكلـمات بينهـما ويكأنهـا سـحابة غائمـة أطلـت عـلى سـماء المنـزل لتسـقط أمطارهـا وتغـادر بعـد حـين لتـترك السـماء للشـمس نـاشرة دفأهـا عـلى المنـزل ، بينـما السـحابة الغائمـة عـلى الرجـال بالخـارج لم يـأذن اللـه لهـا أن تنقشـع .

غيوم في سماء المنزل

نظرت إليهم من خلف زجاج شباك المطبخ بمنزلها .. بينما هي تتنقل بين القيام بغسيل بعض أواني الطهي وبين إعداد وجبة الغذاء لزوجها وأولادها ، وقعت عيناها على ثلة من الرجال يقومون بحمل رصة كبيرة من الطوب الأحمر ونقلها أعلى إحدى البنايات المجاورة تحت الإنشاء ، أشفقت عليهم ورق قلبها لأجلهم .. الجو بالخارج لا يحتمل .. عواصف وأتربة وبرودة شديدة ، أيادي تشققت بفعل الكد والشقاء وتجمدت بفعل البرد القارص ، تحمل قالب الطوب الواحد تلو الآخر لا تعبأ بتشقق أو تجمد فقط تعبأ بقليل من الجنيهات ستمنح لها بعد الإنتهاء ، بينهم صبي لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره يقف موقف الند لهم ، إلا أن فطرته تغلبه لحظات فيستسلم لقشعريرة البرد التي تسري بين مسام ظهره وبين ملابسه الصوفية البالية ، لم تتبدل دماء الطفولة الرطبة في عروقه بدماء الرجال الحارة حتى يستطيع مقاومة تلك القشعريرة ، إلا أن تلك القشعريرة هي ما تعينه على مواصلة الحركة والعمل كلما داعبت فقرات ظهره .

انتقلت من أمام الشباك بعدما فرغت من غسل الأواني بمياه باردة إنتفضت لها جل عروق يدها ، وتنتفض عروق رأسها من صياح الأطفال بالخارج أمام إحدى أفلام الرسوم المتحركة البلهاء ، تسلل مفتاح الشقة ليسكن فوارغ كالون الباب ليعلن عن عودة زوجها بعد أن صارع أعباء العمل وقام بنزال حامي الوطيس لبلوغ المنزل في هذه الظروف المناخية السيئة .

_ سلامو عليكم .

_ وعليكم السلام يا حبيبي .. نص ساعة والأكل يجهز .

_ـ ايه ده !! هو الأكل لسه مجهزش ؟

_ أيوه مجهزش وانا واقفة على حيلي من صباحية ربنا .. البّس واغيّر واغسل واطبخ .

_ ما الناس كلها بتعمل كده وبرضو الأكل بيكون جاهز قبل الساعة ٣ .

_ قلتلك خلاص ادخل غير وصلي واكون جاهزة عالطول .. وبعدين قلتلك كام مرة صلح سخان المطبخ .. أنا خلاص مبقتش قادرة اغسل المواعين من المية الساقعة دي وانت ولا في دماغك وكل اللي في دماغك الأكل يكون جاهز وانت داخل ومش مقدر اني في عز البرد ده وانا بغسل واشطف العيال واجهز اكل من غير سخان .

_ أنا اللي مبقدّرش !! انتي اللي مبتقدريش اني طالع من صباحية ربنا في عز البرد والعفرة وبستكتر على نفسي يوم أجازة عشان دخل البيت ميتأثرش .

_ـ شغل وصحيان بدري .. كل يوم اسمع الكلمتين دول .. ما كل الناس بتعمل كده والا مفيش حد بيشتغل غيرك !؟

_ لا في .. بس أقل حق من حقوقي إني ارجع الاقي الأكل جاهز بعد تعب يوم شغل .

_ شغل شغل .. لو مزهقك الشغل أوي ، جرب كده انت يوم واحد تقعد في البيت وتعمل اللي انا بعمله .

_ ومالو .. وبالمرة اطلعي انت في جو زي ده وفرجيني هتستحملي كام ساعة فيه .

يغادر من أمامها غاضبا محاولا قطع أحبال حديث لو استمر لزادوا أعباء المنظمات الدولية في الصلح بينهما ، ويذهب ليقوم بتبديل ملابسه ويدخل ليتوضأ ويصطدم ببرودة المياه القارصة ليرق قلبه

تجـاه زوجتـه ويلتمـس لهـا الأعـذار .

بينـما تخـرج زوجتـه هـم غضبهـا في غسـل بعـض الأواني المسـتخدمة تعـاود لتختلـس النظـر إلى الرجـال بالخـارج وتـسري قشـعريرة الـبرد داخـل عروقهـا بـدلا مـن عروقهـم ، فـترق لحالهـم وحـال زوجهـا الـذي خـرج منـذ صبيحـة اليـوم وعـاد لتـوه محمـلا بهمـوم عملـه وغيـوم الأتربـة .

ويقطع شرودها قدوم زوجها من خلفها قائلا :

_ عنك انت يا حبيبتي .

_ لا لا ادخـل انـت ريـح عشـان انـت جـاي تعبـان وانـا هخلـص واندهلـك .

تمـر الكلـمات بينهـما ويكأنهـا سـحابة غائمـة أطلـت عـلى سـماء المنـزل لتسـقط أمطارهـا وتغـادر بعـد حـين لتـترك السـماء للشـمس نـاشرة دفأهـا عـلى المنـزل ، بينـما السـحابة الغائمـة عـلى الرجـال بالخـارج لم يـأذن اللـه لهـا أن تنقشـع .

تمت..

-6-

بكـت لأن البـكاء هـو المظهـر الوحيـد المُصاحـب لـكل مشـاعر الإنسـان.. يبـكي حـين يحـزن ويبـكي حـين يفـرح .. يبـكي عندمـا يخـاف ويبـكي عندمـا يتـألم .. يبـكي حينـما يحـب ويبـكي حينـما يفـارق .. يبـكي عنـد نـصره ويبـكي عنـد هزائمـه ، بكـت كثـيرا علّهـم يـروا في دموعهـا الفرحـة !!!

فاطمة العذراء

أصوات زغاريد تصدح لتشق عنان الصمت .. سيدات يهرولن بملابس البيت منهن حافية القدمين ومنهن تجر وليدها وراءها من شغف الفضول .. يتسابقن في الوصول إلى المنزل مصدر الصوت .

يقف على أعتاب المنزل رجال كُثر أغلبهم يرتدي إما جلبابا أبيضا أو جلبابا بلديا واسع الأكمام دون أساور أو ياقة أفرنجي كما يطلقون عليها ، تتجاوز السيدات الرجال وعتبة البيت متسائلين في همهمة متشابكة النبرات .. فرحينا معاكي يا ام ابراهيم ؟ لترد عليهن وقد كست ملامح وجهها إبتسامة واسعة .. قرينا فاتحة فاطنة دلوقتي عقبال ما تفرحوا بعيالكوا .

تتجه الأنظار نحو فاطمة الجالسة بملامح واجمة .. إذا نظرت إليها لا تقرأ على وجهها أية تعبيرات ، لا تدري ماهية فرحة الزواج بعد .. وكيف لها وهي الصبية التي لم تتعد الأربعة عشر عاما ، لا تدري سوى الفرح بسويعات تقضيها بين حقول قريتها مع بنات الجيران وصديقات المدرسة التي غادرتها منذ ثلاث سنوات حين هاجمها وحش البلوغ ليغتال طفولتها ويترك دمائها تُلطخ ثوبها دليلا على فعلته ، وبعدها يقرر والداها إن مفيش خروج من البيت وكفاية مدرسة لحد كده مرددين كلمات حمقاء رددها وسيرددها كثيرون مثل .. هي يعني هتطلع دكتورة ولا اللي زيها وخدوا شهادات عملوا بيها إيه ؟

حتى الحزن لم تصل إلى طريقه ، لم يكتمل عندها نضوج الفتاة التي تعرف أن من في عمرها غير مؤهلين للزواج بعد وأن مثلها في بيئات مغايرة تقضي أجمل سنوات دنياها ، لم تحزن إلا عند فراق

جدتها الحنون التي دللتها لأنها الفتاة الوحيدة وسط أحفادها الذكور ، شعرت على يديها بأنها مميزة ومختلفة عن الآخرين كونها فقط البنت الوحيدة .

هربت كل مشاعر الدنيا في هذه اللحظة من فاطمة إلا شعورها بالخوف ، لم تجد للفرحة بابا ولم تُصادف للحزن طريقا .. ولكنها وجدت الخوف يتسلل عدواً نحوها إلى أن احتواها وتملكها ، لم تعرف سبب الخوف بداخلها .. فبكت بكاءً صامتاً ظل يصرخ داخلها ولا يسمعه من حولها ، بكت لأن البكاء هو المظهر الوحيد المُصاحب لكل مشاعر الإنسان .. يبكي حين يحزن ويبكي حين يفرح .. يبكي عندما يخاف ويبكي عندما يتألم .. يبكي حينما يحب ويبكي حينما يفارق .. يبكي عند نصره ويبكي عند هزائمه ، بكت كثيرا علّهم يروا في دموعها الفرحة !!!

إنصرف الجمع من منزل فاطمة وهي لم تدري بعد أيهم سيكون زوجها ، لم يُسمح لها بالجلوس وسط الرجال ، ولم تستطع أن تحدد من هو عريسها أثناء تلصصها وأمها من وراء حجاب، وما اجترأت على سؤال والديها عنه .

عاد والدها بعد أن أوصل العريس وذويه إلى أول الشارع تقديراً وامتناناً ، دخل داره وهو يتحاشى أن تصادف عيناه عينى ابنته ، وتقطع طريقه زوجته المفرطة في السعادة قائلة : مبروك يا بو ابراهيم ليرد عليها بتنهيدة عميقة : الحمد لله يا ام ابراهيم حمل كبير وانزاح من ورا ضهري !!!

لم تتحمل فاطمة نصل كلمته الغائر فأجهشت بالبكاء بصوت عال لتتجه أمها إليها قائلة :

_ مالك يابت قومي اتنيلي على عينك وافرحي ده انت عروسة

لم ترد فاطمة وقامت متجهة ناحية المصطبة القابعة خلف الدار بالقرب من حظيرة البهائم وهو مكان جدتها المفضل في حياتها ،

حاولت أن تتفهم كلمات أبيها بأنها - حمل وانزاح - ولكنها لم تجد في شريط أيامها أنها كلفت أباها ما لا يطيق أو أنها كانت عاقة بأسرتها لتفعل ما يحلو لها ، فلقد كانت طوعا في كل شيء ولكل فرد فهي البنت الوحيدة في الدار ، فكانت طوعا لأبيها وجارية لأمها ولم تتجرأ في يوم على مخالفة إخوانها الذكور في أي شيء أو التعدي على مساحة حريتهم في سبيل مساحة حريتها ، فلماذا يوصمها بهذه الكلمة التي ألقاها لتوه ؟؟؟

وفي زحام أفكارها تصل إلى مسامعها كلمات من حديث والديها حين سألت أمها أباها :

_ هو العريس مش هييجي يجالس البت شوية قبل الفرح يابو ابراهيم ؟

_ يجالس إيه وبتاع إيه ، بلاش كلام فارغ .

_ عشان بس البت تعرفه وتاخد عليه يابو ابراهيم .

_ قلنا لأ .. إياكش فاكراه عيل من اللي بيسافروا بره ودماغه فاضية والا مستوظف في الحكومة ووقته فاضي ، ده راجل فلاح وشغال على دراعه واتفقنا خلاص إنه هييجي آخر خميس في الشهر يكتب الكتاب ويقعد معاها شوية والدخلة يوم الجمعة على طول .

إجتازت الكلمات مسامعها ليزداد خفقان قلبها خوفا مما تسير الأمور إليه ، لم تستطع فعل شيء سوى البكاء ، وكيف تستطيع وهي لم تعرف يوما معنى أن تكون فاعلة ولم تدرك سوى أن تكون مفعولا بها .

مرت ساعات تلك الليلة متبخترة في دقائقها وكأن الوقت يستعذب بكائها وآنّاتها ، بحثت عن النوم هربا وما وجدته إلا بعد أن جف نهر دموعها وأغلقت هاويس جفونها عليه .

إستيقظت في صباح اليوم الثاني ممنية النفس بأن يكون ما حدث حلما ولكن ما تمنته صار حلما لحقيقة واقعة بعد سماعها لكلمات أمها وترتيبها لما سوف يقُمن بفعله حتى ليلة القران .

مرت الأيام سريعة ونضبت ساعاتها في التجهيز للعرس المرتقب ، قامت أم فاطمة بحصر جهاز ابنتها مما تكفل به عمها الأكبر وبعض الهدايا التي جلبها خالها الأصغر الذي يعمل بإحدى البلدان العربية وفتات مما استطاعت تدبيره لها من ميزانية زوجها ، وتستسلم فاطمة لواقعها الجديد ووتتأقلم كما تعودت طيلة أربعة عشر عاما على أحداث لم تخترها ومصير لم تحدده ومستقبل مسير لها .

جاء يوم القران وبدأت نسوة العائلة تترددن على الدار للمساعدة في إعداد طعام الغذاء للضيوف من العائلتين ، وبدأ الرجال يتوافدون ويتجمعون بساحة خالية تم تجهيزها لاستقبالهم أمام الدار ، وفرغوا من تناول طعامهم واحتساء الشاي لتبدأ مراسم القران التي لم تستمر طويلا وما أن انتهت حتى تلاحمت المباركات وكلمات التهنئة بين الرجال وتعانقت الزغاريد في ألسنة النساء ، وشيئا فشيئا يرحل مشيعوا العرس تاركين ورائهم ضحيتهم تجالس قاتلها .

جلست فاطمة إلى عريسها السيد وظل الحديث جامدا بينهما ، فارق عمري بعيد يصل إلى واحد وعشرين عاما لا يستطيع أن يقرب كلمات الوصل بينهما ، وحداثة عمر فاطمة وقلة خبرتها تضعف أية محاولة للتفاهم ، وتاريخ السيد في زيجته الأولى يصرع كل محاولات التقارب ، فهو الرجل الذي كد وعانى من أجل أن يظفر بعروس تحمل له خليفة من صلبه ، ومن أجل ذلك تزوج منذ خمس سنوات ولكنه لم يظفر بمبتغاه ، تردد وطليقته على الأطباء وما اقتنع بجوابهم بأنهما -صاغ سليم- وأنها مسألة وقت ليس أكثر ، وطرق باب الشيوخ الذين وصموا طليقته بالعقيم فكانت كلمتهم حكما كنسيا بالتطليق .

كان اللقاء ثقيلا على فاطمة ولكنها لم ترد له أن ينتهي ، فمعنى انتهاء لقاء الليلة أن العد التنازلي سيبدأ للقاء الأصعب .. لقاء الليلة القادمة ، كما أنها تمنت لو طال علّها تجد خيطاً رفيعا تمسك به لتسير نحو زوجها السيد .. ورحل السيد ورحل معه الأمل في الوصال ، وباتت فاطمة يائسة مستسلمة لما سيق لها من أقدار .

وفي صباح اليوم التالي يأتي جمع البارحة لتوديع العروس لمثواها الأخير – بيت زوجها – وفي تمام السادسة مساءً يحضر السيد رفقة ذويه ، وتُقَدم له التهاني ووجبة العشاء على مائدة واحدة ، وما أن فرغ من طعامه حتى دخل أبو إبراهيم ممسكا بفاطمة في يده قائلا : يالا يا عريس خد عروستك واتكل على الله وخلي بالك منها ، ويتجه إلى فاطمة بحديث : وانت يا فاطنة جوزك يعني في مقام أعلى من ابوكي يوم ما يغضب عليكي يبقى الدنيا وما فيها غضبت عليكي وكلامه ليكي زي القرآن .. يالا في حفظ الله ، ويقتنص السيد يد فاطمة من بين يدي أبو إبراهيم ويخرج بها مترجلا حيث داره ، وشيئا فشيئا يعقبه انصراف جمع العرس ، وتعود دار أبو إبراهيم خالية من الفرحة والضحكات وفاطمة .

إلتقى الزوجان .. عين للتواصل جائعة وعين للوصال مانعة ، أمسك السيد يد فاطمة فسحبتها وكأن كهرباء صعقتها ، ضحك السيد ضحكة ساخرة قائلاً : إيه مكسوفة يا بت ، لم ترد فاطمة ولكنها لم تستسلم لمحاولات زوجها ، قاومت بدفعه مرة وبالصراخ مرات وفي كل مرة يسمع فيها السيد صرخات فاطمة يزداد اشتعالاً ورغبة .. بدا الموقف للسيد كلعبة يناور فيها ليظفر بفريسته في النهاية وبدا لفاطمة وكأنها حرب إما أن تستسلم وتموت وإما أن تقاوم لتعيش ، مرت ساعات الليل في كر وفر بين السيد وفاطمة دون الوصول لأي نتيجة ، فلا السيد انتصر ولا فاطمة سلمت من الموت وبقي الأمر معلقا لموقعة

أخرى يستعيد فيها كل طرف مخططاته ويجدد أسلحته .

حلّ الصباح بفاطمة التي باتت مطمئنة بعد أن غادر السيد غرفتها مفرغا رغبته في الإنتصار عبر كلمات غاضبة وتهديد غاصب لكل مشاعر فاطمة .. تطرق الزغاريد الباب قبل الأيدي وتنفلت من وراءه أصوات لأم فاطمة وخالتها ، ويقوم السيد بفتح الباب بوجه عبوس غاضب مرحبا ترحيبا مقتضبا : أهلا يا ام ابراهيم ، لم ترد عليه وتوجهت مباشرة نحو غرفة ابنتها لتجدها في غطاط عميق ، وتطلق أم إبراهيم بروجي الصباحية المعتاد بسلسلة من الزغاريد المتعاقبة وتستيقظ فاطمة وبدون كلمات تقوم من فراشها لترتمي على وسادة صدر أمها وتواري وجهها بين نهديها وتبكي .

لتقول أم إبراهيم ضاحكة : إيه يا بت مالك ما اللي راح راح بقى خلاص مبروك يا عروسة ، ولكن فاطمة تزيد في البكاء وتزداد اضطرابا ، لتشعر أمها بأن ثمة خطب ما غير ما تألفه في مثل هذا النهار ، وتتجه نحو السيد متحسسة الأرض تحت قدميها على مهلٍ وتخرج من الغرفة لتجده جالساً يحاول أن يطفئ غضبه بنيران جوزته .. فتقول له بحروف منكسرة : صباحية مباركة يا سي السيد ، ليلتفت إليها السيد بنظرة تحمل كل المشاعر السلبية من غضب وكره وقسوة وانتقام قائلا بسخرية : وهتيجي منين البركة يا ام العروسة

_ أعوذ بالله .. ليه بس كده يابني .

_ إسألي بتك .

_ ومالو يا حبيبي .. مانت برضو زي ابني .

_ ولما انا زي ابنك ترضي ابنك يبات بره فرشته كيف الغفير ، والا مَرَتُه تمد يدّها عليه عشان تتمنع عليه ، ويختم حديثه مستنكرا : تتمنع عليا ليه .. فيها إيه هي عشان تتمنع عليا .

_ إيه بس اللي انت بتقوله ده يا سي السيد ، هي تلاقيها خايفه والا

تعبانـه .. اهـدى انـت بـس والـلي فاتك امبـارح تلحقـه النهـاردة ياخويا.

_ ده بدل ما تروحي تعقليها وتفوقيها بقلمين على وشها .

_ـ يـا سـيد ياخويـا الحاجـات دي متجيـش كـده ، طـول بالـك وانـت الليلـة تنـول مـرادك .

تمتـم السـيد بكلـمات الغضـب والاسـتنكار ، وهرولـت أم إبراهيـم مسرعـة خـارج الـدار ولحقـت بهـا أختهـا ، وتـسرع فاطمـة في غلـق بـاب الغرفـة عليهـا حتـى لا يفكـر السـيد في الإغـارة عـلى حصنهـا مـن جديـد .

ويمـر اليـوم الأول ويعقبـه الثـاني والثالـث بـين حمـلات غاشـمة مـن السـيد وبـين دفـاع مسـتميت يـزود عـن حصـن فاطمـة ، ليفيـض كيـل السـيد مـن مراوغـات زوجتـه وتمنُّعهـا ليتجـه إلى دار أبـو إبراهيـم منفعـلاً :

_ـ شـوف يـا حـاج الأمـور دي متمشـيش معايـا ، أنـا صـبرت كتـير وخـلاص صـبري نفـد ، وان كان بتكـوا فيهـا حاجـه كنتـوا اتسـتروا عليهـا ومتجوزوهـاش .

سـعت كلـمات السـيد نحـو أبـو إبراهيـم لتدفعـه إلى حافـة الخـزي والعـار .. لم يسـتطع رد الكلـمات ومـا اسـتطاع أن يـرد غيبـة ابنتـه ، وتخـرج أم إبراهيـم قائلـةً في غضـب : إيـه الـكلام الـلي انـت بتقولـه ده يـا سـيد ، عيـب ياخويـا مـش كـده .

_ـ وانت شايفه حاجه غير كده يا حماتي !؟

_ـ شـايفه إن دخلتـك عليهـا النهـاردة يعنـي النهـاردة هتاخـد وشـها ونرتـاح .. وانـا وخالتهـا وامـك هنبقـى شـاهدين عـلى كـده ، روح جهـز نفسـك في دارك ومتقولّهـاش حاجـه وسـيب الباقـي عـلى النسـوان .

مـا قررتـه أم إبراهيـم لتوهـا جريمـة اغتصـاب جماعـي مكتملـة الأركان ، فيهـا يظفـر الجـاني بفريسـته بمشـاركة جمـع مـن حولهـما ، يشـاهدون ويباركـون وربمـا يسـتمتعون معـه .. يشـاهدون الضحيـة ودمائهـا ويباركـون طهرهـا وعفتهـا ويسـتمتعون بعذريـة سـلبت عـلى يـد حلالهـا .

جـاء قـرار أم إبراهيـم ليقـدم طـوق نجـاة تنقـذ بـه زوجهـا لتعيـده إلى أرض الـشرف والفخـر بعدمـا بـات عـلى حافـة العـار ، لم يرتـضي القـرار ولم يسـتطع أن يرفضـه .. لم يـدرك عـدم جـدوى أن يعيـش الفـرد موصومـا بالـشرف بـين النـاس ويعيـش بينـه وبـين نفسـه يشـعر بالعـار .

ويزحـف الليـل نحـو دار السـيد وفاطمـة مصطحبـا أم إبراهيـم وأختهـا ، ومـا أن تجـاوزوا عتبـات الـدار حتـى وجـدوا السـيد وأمـه في الإنتظـار بجـوار غرفـة فاطمـة المغلقـة .

وبـدون كلـمات أو تحيـات تندفـع أم إبراهيـم نحـو غرفـة إبنتهـا محاولة إقناعهـا بـأن تفتـح البـاب ، ولم تـدري فاطمـة بـأن أمهـا تلعـب دور والي عـكا حـين فتـح حصـون مدينتـه لجيـوش الصليبـين ، فقامـت فاطمـة بفتـح أبـواب مدينتهـا لتجـد الجيـوش الغازيـة تحتلهـا ، هربـت إلى أعـماق مدينتها لتحتمـي بوسـادتها ولكـن أمهـا تـصر أن تتقـن الـدور الرخيـص وكأن جوائـز الإبـداع في انتظارهـا ، تقـترب منهـا وتمسـك بيدهـا لتـسرع خالتهـا لتتمكـن مـن الأخـرى وتعقبهـم والـدة السـيد بمسـاعدته في تمهيـد الطريـق نحـو عـرش المدينـة عـبر قدمـي فاطمـة ويقومـون بتثبيتهـا تثبيتـا لتخـور قـوى فاطمـة وتطلـق صرخـات الإنكسـار والإنهـزام عـلى أيـدي الجيـوش الغاصبـة الجائـرة .

بعـد أن مُهـد لـه الطريـق ، إمتـد نصـل أصابـع السـيد لينتـزع تـاج عفـة فاطمـة ويخـرج عـلى مهـلٍ تسـبقه دماؤهـا ، اسـتدار السـيد مغـادراً بعـد أن سـكنت الطمأنينـة سريرتـه ، وفكّـت النسـوة قيودهـن بعـد أن سـكنت الراحـة قلوبهـن ، وتركـوا فاطمـة جثـة هامـدة لا تتحـرك .. لا تتكلـم .. ولا تبـكي .

رحلـت النسـوة حـال الانتهـاء مـن المهمـة وقـام السـيد بتغيـير ملابسـه مرتديـا جلبابـاً أبيضـا ليخـرج وكأن صباحيتـه كانـت تـواً ، وخلـت الـدار عـلى فاطمـة وحزنهـا ولم تسـتطع أن تسـتمر أكـثر مـن هـذا بهـا فقـررت العـودة

إلى منـزل أبيهـا وهـي تعلـم أن عودتهـا غـير مُرحـب بهـا ولكنهـا رأت أن حياتهـا مـع سـجّان خـير مـن حياتهـا مـع قاتـل .

دخلـت دار أبيهـا تجـر ذيـل الـشرف والأحـزان ، رفـض والداهـا عودتهـا وحـاولا أن يعيداهـا إلى حيـث أتـت ، لكـن فاطمـة التـي كانـت مـا عـادت لتكـون كسـيرة الخاطـر فقـيرة البيـان ، جادلتهـم ورفضـت .. ناقشـتهم وامتنعـت ، ولم يجـدوا سـبيلا إلا الإنصيـاع لطلبهـا إلى حـين .

جـاء السـيد إليهـم في طلـب زوجتـه فـما جنحـت إليـه ومـا لانـت ، فاسـتمهلوه فأمهلـم .. ولكـن دون جـدوى .

ظلّـت فاطمـة عـلى حالهـا في دار أبيهـا ولم تبرحهـا لأي سـبب مـن الأسـباب ، وفـاض كيـل السـيد بمـا يحـدث ولم يسـتطع الصـبر عليـه ، فأيـام عمـره تهـرول أمامـه ولم ينـل الخليفـة المنتظـر بعـد ، فـما كان منـه إلا طلاقهـا والبحـث عـن دابـة غيرهـا تـأتي لـه بمـراده .

تمـر أيـام وشـهور وفاطمـة في منفاهـا الإختيـاري تدفـع ثمـن عصيانهـا عـلى عـادات باليـة ، تعـاني مـن توابـع جـبروت قـرار أهلهـا وتَجَبُرُهُـم عليهـا ، لم تسـتطع التخلـص مـن ذكريـات أيـام زواجهـا السـوداء ، حاولـت أن تنسـج غـزلا مـن خيـوط ذاكرتهـا القديمـة قبـل الـزواج ولكنـه سرعـان مـا ينقـض عندمـا تتذكـر مـا حـدث بينهـا وبـين السـيد .. أصبحـت عبئـا ثقيـلا عـلى الـدار ، رأت في عيـون مـن حولهـا رغبتهـم في رحيلهـا مـرة أخـرى ، تأهبـت هـذه المـرة أن تتقبـل أمـر الـزواج علّـه يكـون فيـه خـير لهـا .

وتمـر سـنتان عجفـاوان في دار أبيهـا تحمـل فيهـا فاطمـة لقـب مطلقـة وهـذا كفيـل بـأن يـرد كل مـن يرغـب فيهـا للـزواج ففـي مثـل قريتهـا لا يُقـرّون صلاحيـة لثيّـب .

وجـاء يـوم عـاد فيـه أبـو إبراهيـم تغمـره غبطـة لم يشـعر بهـا منـذ عـودة ابنتـه إلى الـدار ، يـزف خـبرا سـعيدا إلى بيتـه بـأن هنـاك مـن يطلـب يـد فاطمـة بالرغـم مـن علمـه بكافـة تفاصيـل مـا حـدث لهـا .

ولأول مرة ترتسم على وجه فاطمة البسمة ، هي لم تفرح لمغادرتها المنزل ولم تفرح بعريسها لأنها لا تعرفه ولكنها فرحت لأنه أتى إليها وهو يعلم ما مرت به من أحداث ، تخيلته حنونا عاطفيا مالكا لخيوط التواصل معها رغم عدم رؤيته لها أو رؤيتها له .

وجاء يوم زيارة فتحي – العريس – ولم تسمح فاطمة له بالزيارة إلا بعد أن عرفت عنه ما تريد أن تعرفه ، فهو يحمل شهادة الدبلوم الفني وتطوع بعدها للعمل بالجيش ومعروف لدى قريته بأنه ذو سمعة وسيرة طيبة وينحدر من سلالة أسرة بسيطة طيبة الأصل وهو في نهاية العقد الثالث من عمره ، فارق عمري قد يكون مناسبا جدا بعد تجربتها السابقة وظروف شخصية ومواصفات تطلق صافرات الأمل في مخيلتها .. هل عوضها ربها خيرا .. هل صبرها على محنتها كان سببا في أن تنال مكافأتها .. هل هناك من هو يشعر بها وتألم لما تألمت له ؟؟ أسئلة كثيرة جالت كثيرا في خاطرها قبل أن تخطرهم بموافقتها على زيارته شريطة مقابلته شخصيا ، ليوافق والداها حرصا على ألا تنفلت الفرصة من بين أيديهم .

يأتي فتحي إلى دار فاطمة صحبة أخت له تصغره قليلا تحمل رضيعا على يدها ويتشبث بعباءتها الآخر ، زيارة تعطي انطباعا أن هذا النسب غير الذي اعتادوا عليه في القرية ، فلقد خالف سلو أهل البلد حين أتي العريس دون أبيه وعمه واكتفي باصطحاب أخته فقط كما يفعل أولاد البنادر ، وإن خالف سلو أهل القرية إلا أنه صادف هوى فاطمة .. فطالما حلمت بزيجة غير التي رأتها في كل ديار القرية لتنسيها ما كان بما حان أن يكون .

استطاع فتحي أن يصل الى درب فاطمة بكلمات ركيكة مبتذلة في حقيقتها لكنها كانت بالنسبة لفاطمة هي الحب ذاته ، رأت فيه الرجل الذي يجب أن تحلم به كل البنات ، تراقصت عيناها فرحا

برؤيته وتمايلت أذناها طربا بسماعه وأخفق قلبها حبا له لمجرد أنه نموذج مختلف غير الذي تراه من رجال .

لم تمتلك فاطمة الخبرة الكافية حتى تستطيع أن تحكم على من تقابل ، لا تملك من المهارات التي تُقيّم صدق الكلام من كذبه ، ولا تملك عقلا ناضجا حتى تفرق بين من يشعر بالحب ومن يتكلم بالحب .. فقط كانت تملك قلبا نابضا يريد أن يبتعد عن من يعيدها سيرتها الأولى .

وكعادة الأوقات الجميلة تمر سريعا مرت فترة خطبة فاطمة وفتحي ، واقترب موعد القران والزفاف ليتفق الطرفان على الأمور المادية المعتادة والتي أظهر فيها فتحى كثيرا من الكرم والمرونة ليكسب بها عدة نقاط تزيد رصيده لدى فاطمة .

ويتم القران وينتهي الزفاف ويصطحب فتحي عروسه إلى الطابق الثالث بمنزل عائلته حيث أعد مسكن الزوجية ، وبمجرد دخولهما عتبة البيت سرت في جسد فاطمة قشعريرة باردة ارتعد لها الجسد بأكمله .. تذكرت تفاصيل الليلة الأولى مع السيد وسرحت في ما فُعل بها في الليلة الأخيرة حتى أنها لم تلاحظ جلوسها بجوار فتحي على سرير واحد ، وما أن عادت من شرودها ولاحظت قرب فتحي منها حتى هبت واقفة تصرخ في وجهه متقربليش .. متلمسنيش .

تملكت الدهشة فتحي ولم يحاول أن يستثيرها أكثر مما كانت عليه ولم يعقب إلا بمحاولات للتهدئة وطمأنتها ، وخرج في هذه الليلة لينام في غرفة أخرى حتى تستقر سريرتها وتعود إلى حالتها الطبيعية .

وفي الصباح لم تأت أم ابراهيم للمباركة أو الاطمئنان هربا من مواجهة ذنبها الأول ، واستيقظت فاطمة مبكرا لتتذكر ما كانت عليه الليلة الماضية وتشعر بالذنب ، لتبدأ البحث عن فتحي إلى أن وجدته في الغرفة الأخرى لتوقظه وتقدم له الأعذار عما بدر منها مبررة له

فعلتها بأثر ما سبق وحدث لها ومعها ، وتفهم فتحي الأمر ليمر اليوم دون أن يظهر امتعاضا أو تأففا .

وتمر الليلة الثانية تعقبها ليلة وليلة والأمر لم يتبدل أو يحدث فيه أي تغيير ، ليبدأ فتحي بالتغير والاعتراض على هذا الوضع غير المفهوم أو المبرر ، ومع مرور الليالى بنفس الحال والوتيرة يقترب موعد انتهاء إجازة فتحي ورحيله إلى غرب البلاد حيث يعمل ولم يتحمل فكرة انتظار قرابة الشهر حتى يظفر بحلاله ، ليقرر الدخول بها بأي طريقة ومهما كانت مقاومتها .

دخل فتحي على فاطمة غاضبا وأسمعها من كلمات اللوم والتوبيخ ما لم تسمعه منه من قبل ، وعايرها بما كان لها وأظهر مَنَّهُ عليها من صبر وهدوء وأن ما كان منه ما كان ليكون إلا محاولة لنيل مراده منها لا مراعاة لها ، وأفهمها بصيغة فيها تهديد بضرورة توقف هذا الأمر وإلا سترى ما لا تحب أن تراه ، منهيا حديثه منتشيا : مش الصول فتحي اللي يتهزله رجالة بشنبات اللي يتعمل معاه كده .

لم ترد فاطمة عليه إلا بما دأبت عليه – البكاء – بكت كثيرا علّها تستطيع أن تستميل حنانه ومشاعر عطفه التي كانت ، لكن هيهات أن تنادي في فتحي أي مشاعر إنسانية فلقد تملّكت منه غرائزه وسيطرت عليه الأنا الذكورية وقد نوى وتأهب بأن الليلة يعني الليلة .

وهمّ بها فتحي فأهمّته بمقاومتها ، فاعتدى عليها بالضرب المبرح ولكن فاطمة كانت قد اتخذت قرارا لا رجعة فيه وهو الزود عن نفسها مهما كلفها الأمر من تضحيات .. فيعتدي وتقاوم ويضرب وتدافع حتى أدركت أنها في معركة لو طالت ستكون الطرف الخاسر لا محالة ، ولم تجد نهاية لما هي فيه إلا في أحد حلّين إما أن تنهي حياة خصمها أو تهرب منه بأية طريقة .

دفعت فاطمة فتحي بقوة واتجهت نحو الباب مسرعة حتى

تستطيع الخروج من مذبحتها الجديدة ، وتعدو نحو ملاذها الدائم – دار أبيها – ووجهها قد اختلط عليه سيل دمائها مع سيل دموعها لترسم على وجهها خريطة تحكي خطوطها معاناة فاطمة وآلامها .

تمت..

-7-

يبدو أنه لا يمزح ، ولكن أنا لا أتذكر أني مت .. آخر ما أذكره أنني كنت أستقل سيارتي صحبة أصدقائي متجهين إلى مدينة الأسكندرية حيث ليالي الشتاء الساحرة .

إحذر .. لا تسلك هذا الطريق

ـ أين أنا .. ما كل هذا الظلام .. وما هذا الجو الخانق .. أين أنا ؟

_ أيها الإنسان .

_ هاه .. من أنت ؟

_ أمستعد أنت للإمتحان ؟

ما هذا المزاح .. هل تعرضت للإختطاف .. أم هي لعبة جديدة .. هل هذه إحدى مقالب أصدقائي ، على أي حال يجب أن أرد حتى أفهم ...

_ أي امتحان تقصد يا رجل ؟

_ من ربك ؟

_ هل تمزح يا رجل .. إنه .. إنه .. انتظر قليلا .. ماذا حدث لذاكرتي .. عقلي أصابه العطب أم أنه لا يعمل في الظلام .. أنا أعرف الإجابة جيدا ولكنني لا أتذكرها .

_ ما دينك ؟

_ نعم نعم أنا مسـ .. مسـ .. ما هذه الحماقة لماذا عُقد لساني .. هل تسمعني يا رجل .. هل تفهمني ؟.

_ من نبيك ؟

_ نبيي !! هل تقصد أنني .. هل أنا ميت يا رجل ؟

_ نعم وأنت الآن تُسأل .

_ كيف ومتى .. أنا لا أتذكر شيئا .. كفاك مزاحا يا رجل ، وهيا أرني أنظر إليك .

_ ربما من الأفضل ألا تراني .

_ كفاك عني بألغازك وقل لي ، ما هذا النور البعيد ؟

_ ربما هو نور الجنة وربما هو لهيب النار .

يبدو أنه لا يمزح ، ولكن أنا لا أتذكر أني مت .. آخر ما أذكره أنني كنت أستقل سيارتي صحبة أصدقائي متجهين إلى مدينة الأسكندرية حيث ليالي الشتاء الساحرة .

_ يا لها من فكرة رائعة .. أنا موافق .

_ وأنا أيضا .

_ انتظرا .. هل لنا أن نؤجل سفرنا إلى الصباح .

_ لماذا .. كل شئ جاهز ، السيارة ومفتاح الشقة معي .

_ نعم ولكن الليل قد حل علينا والسماء ممطرة ولم تغلق هاويسها بعد وبالتأكيد سيكون على الطريق الكثير من الضباب الذي سيفسد علينا الرحلة .

_ صه يا غبي .. ما أروع هذه الظروف ، علينا ألا ننتظر .

_ وأنا أوافقه الرأي .. هيا بنا .

إذن لقد مت في حادث طريق .. نعم نعم بالتأكيد هذا ما حدث ، لقد بدأت أتذكر الأحداث .. لقد سافرنا إلى الأسكندرية عندما جاءنا خبر وفاة والد أحد زملاء العمل الإسكندرانية واتفقنا على أن نسافر في الليل بدلا من الإنتظار للنهار لضمان اللحاق بالجنازة .

_ إسمع يا رجل ، لن تخيفني بكلماتك .. حتى لو كنت صادقا وأنا الآن ميت فلقد حَسُنَت خاتمتي ، نهايتي كانت سعيا للخير والحمد لله .

_ هل أنت متأكد ؟

هدوء الرجل يقتلني .. والظلام والموقف وكل شيء يجعل عقلي مشوشا ، لماذا وقد تذكرت مقصدنا وكان خيرا ، لقد وصلنا إلى الأسكندرية بالقرب من منتصف الليل واقترح أحدهم أن نذهب إلى ملهى ليلي

بالمعمـورة لنقطـع سـاعات الليـل وبعدهـا نذهـب للشـقة للنـوم فقـط .

_ هذه هي الأفكار .. لنجعل من ليلتنا سمرا وسهرا .

_ انتبهوا وتذكروا لماذا جئنا .

_ جئنـا للأمـوات يـا سـيدي ولكـن لم يـزل لدينـا متسـع مـن الوقـت حتـى النهـار ، فلنجعـل النهـار للقبـور ونجعـل الليـل للخمـور .. وتتعـالى ضحكاتنـا جميعـا .

خمـور .. إذن لقـد شربـت حتـى ثملـت ولعـدم اعتيـادي شرب الخمـور أُصبـت بنوبـة قلبيـة ومـت .. مؤكـد هـذا مـا حـدث .

_ انتظر يا رجل أنا لست متأكدا .. هل لي أن تعيد أسئلتك مرة أخرى .

_ لماذا ؟

_ علّي أصيب الإجابة .

_ هل تذكرت خاتمتك وتريد فرصة أخرى ؟

_ ليـس هكـذا .. ولكـن هـول المفاجـأة وغمـوض الموقـف جعـلاني في حـيرة مـن أمـري ، أرجـوك يجـب أن تقـدر مـا أنـا فيـه .

_ وهل تعتقد أنه سيجدي ؟

عدنـا للهـدوء المخيـف .. يـا لـه مـن رجـل !! يجـب أن أحصـل عـلى فرصـة أخـرى فكيـف لي ألا أحظـى بحسـن الخاتمـة ولا أجيـب عـلى سـؤال القـبر .. إننـي هالـك لا محالـة .

لمـاذا ثملـت .. ولمـاذا وافقتهـم في اقتراحهـم ؟؟ لقـد حملـوني إلى خـارج الملهـى محاولـةً منهـم في إفاقتـي .. تذكـرت ، لقـد فقـت مـن الثمالـة .

_ الله يخرب بيتك .. لماذا تشرب كل هذا وهذه أول مرة لك .

_ لماذا تفعل هذا بنا .. لقد كدنا أن نفقدك .

_ آسف يا جماعة .. ولكن من هاتان الفتاتان ؟

_ بقولـك إيـه .. هـذه الليلـة لـن تتكـرر كثـيرا فلننعـم بمـا لـذ وطـاب .. ولم نجـد ألـذ منهـما ولـن يطيـب لنـا مثلهـما .. وتتعـالى ضحكاتنـا جميعـا .

فتاتـان !! إذن لقـد اصطحبنـا الفتاتـين للشـقة وقضينـا الليـل في خمـر ونسـاء .. يـا لهـا مـن زندقـة تمنحنـا ضمانـاً أكيـدا لرضـاء إبليـس عـلى أعمالنـا .

_ أرجوك يا رجل .. أرجوك لتمنحني فرصة أخرى .

_ يبدو أن خاتمتك كانت سيئة جدا .

_ ليس هكذا بالضبط ، ولكني بشر وكل البشر خطاؤون .

_ وماذا تفعل بفرص جديدة ؟

حسـنا .. لقـد أبـدى الرجـل تجاوبـا ويجـب أن أنجـح ، فخاتمتـي عـلى أسرة الملـذات والمتـع الحـرام مقيتـة .

_ يـا لـك مـن وضيعـة .. لقـد أخبرتـك أني سـأدفع لاحقـا ، نحـن مـا زلنـا معـا ، لمـاذا التعجـل ؟

_ آسـفة .. الدفـع أولا يـا أسـتاذ ، إعتـبرني كبطاقـة المحمـول .. الشـحن مقدمـا حتـى يفتـح الخـط وإن لم تدفـع مقدمـا سـأظل أكررهـا لـك عفـواً .. حـاول في وقـت لاحـق .

_ هذا أسلوب رخيص لن أقبله .. إطلعي بره .

الحمـد للـه الحمـد للـه .. إذا أنـا لم أفعـل بهـا ، ولقـد راودتنـي عـن نفـسي واسـتعصمت ، يـا لهـا مـن خاتمـة بيضـاء .

_ إسمع يا رجل .. لن أطيل رجائي معك ، فاقض ما أنت قاض .

_ يبدو أنك تأمن مكر ربك ، لك ما تطلبه .. لا فرص جديدة .

مـا هـذه الجديـة والسرعـة في الـرد ، لمـاذا يقـول هـذه الكلـمات .. أنـا لسـت في أمـان مـن مكـر ربي ولكنـي أطمـئن لعمـلي .. فـماذا بعـد دعـوة امـراة لي وإعـراضي عنهـا !

نعـم أنـا لم أفعـل بهـا وبالفعـل أتذكـر أنهـما عـادا مـن حيـث أتيـا وتركونـا للنـوم ، ويمـضي الليـل لنسـتيقظ صباحـا لتشـييع الجنـازة ونتـم مهمتنـا لنتفـق عـلى العـودة فـورا الى القاهـرة ، ولكـن ...

_ـ حاسب يابني حاسب .

_ أنت الآن تسير عكس الاتجاه .

_ الجهة المقابلة متوقفة تماما ولا طاقة لي بهذا الزحام .

_ـ ماذا فعلت يا أعمى ؟؟ لقد حذرتك بألا تسلك هذا الطريق .

_ لا أعرف كيف حدث هذا .. لقد مر أمامي فجأة ولم أستطع تدارك الأمر .

_ ما العمل ؟؟ إن الرجل ملقى على الأرض غارقا في دمائه .

_ ربما مات .

_ وربما ينتظر أن نعود إليه لإنقاذه .

_ـ هل جننت !؟ وعندها س ، ج ومحضر شرطة وعرض النيابة ومنسوب إليك قتل فلان نتيجة قيادتك عكس إتجاه السير ومتجاوزا للسرعة القانونية .. أليس كذلك !؟

_ ما العمل إذن ؟

_ سنكمل طريقنا وكأن شيئا لم يكن .

_ نعم وأنا أؤيده .

_ ولكن الرجل يحتاج إلى مممممم ..... إذن ليكن ما تشاؤون ، إاستمر في القيادة .

هذا ما كان ينقصني .. قتلت نفسا ذكية بغير نفس .. إن الأمور تزداد تعقيدا ، خاتمتي غاية في السوء ولن يعطيني الرجل فرصا جديدة ولن يمهلني .

_ يا رجل أستحلفك بالله لتمهلني وتعطيني فرصة أخرى ، لقد أضعت نفسي فلا تزيد الأمر صعوبة وتضيعني .

_ لماذا تقول هذا .. لقد منحناك فرصة أخرى للحياة .. كم أنت محظوظ .

_ هاااه ... من أنت .. أين الظلام .. أين أنا ؟

_ أنا الطبيب المعالج وأنت الآن في المستشفى ، لقد صدمك أحدهم بسيارته وهرب ثم أتى بك أحد فاعلي الخير ولولاه لفارقت الحياة نزفا .

_ وأين هو ذلك الرجل ، أريد أن أشكره على إنقاذ حياتي .

_ مع الأسف .. لقد حضر بك ثم أصيب بنوبة عصبية وبدأ بالتشنجات والتمتمة بكلمات غريبة غير مفهومة ثم أصيب بنوبة قلبية ومات .

_ لا حول ولا قوة إلا بالله .. ربنا يرحمه ويسامحه .

تمت..

-8-

وينفصل إسماعيل بذهنه عن ذويه ويغوص في بحر أفكار طالما غاص فيه كلما شعر بضغوط الحياة الطبيعية ، ليعاود التفكير فى زوجته التي لم يعد يطيق لها وجودا فى حياته .. فبعد أكثر من عشرين عاما على زواجهم يشعر بأنها لا تتوافق مع شخصيته وتفكيره وأنه يريد امرأة أخرى تريحه لا أن يريحها هو فى كل طلباتها ، وبرغم رفضه وإعتراضه عليها إلا أنه يشعر فى بعض الحالات بأنها قد عقدت عليه سحرا مصنوعا من عتاة السحرة وبأنه لا منجي من براثن عشرتها إلا الموت...

اسكندرية صد رد

بالعقار رقم ٥٣ بشارع شبرا يسكن الأستاذ إسماعيل خلف الله الموظف بمصلحة الضرائب العامة ، تاريخه الوظيفى لا يقل عن ثلاثين عاما ، زوجة وولد وبنت هم قوام أسرته ، كل شيء بحياته وفى بيته يجرى بطريقة روتينية تشعرك بالملل فعندما تدخل إلى بيته وحياته يخيل إليك بأنك تراجعت بالزمن عشرين عاما إن لم يكن أكثر من ذلك .

فى الساعة السابعة صباحا تدخل زوجته تحية - وهى بدينة بدرجة مفرطة تشعرك بأن الأزمة الإقتصادية لم تنل منها شيئا - وبصوت يتناسب مع قوامها تنادى ...

_ اسماعيل اسماعيل اصحى ياللا يابو محمد

- إيه فى إيه يا ستى

_ إصحى ياللا هانتأخر

_ ليه هى الساعة كام

_ الساعة سبعة

ووقعت الإجابة كالصاعقة على إسماعيل ويرد عليها بيقظة وكأنه فى كامل إستفاقته

_ ولما هى سبعة بتصحينى ليه ما احنا حاجزين فى قطر اتنين

_ لا يا خويا مانا قعدت آخد وادى مع نفسى ولقيت إن احنا نروح بالعربية احسن

_ لا طبعا العربية لسة شاريها من أسبوع ومقدرش اسافر بيها لاحسن يحصل حاجة أنا لسه بجربها

_ لا والنبـى يابـو محمـد العيـال نفسـها تسـافر بالعربيـة وانـا رتبـت نفـسى عـلى كـده وبعديـن احنـا شـيلتنا كبـيرة

_ يا صبر أيوب ولما يحصل حاجة فى الطريق يا بنت الناس

_ ياخويا سيبها على الله وربنا هايسترها قوم بقى

_ الأمر لله ربنا يستر روحى صحى العيال

_ وهما ناموا أصلا كله صاحى ولابس ومستنيك

_ طيب حضرى الفطار وانا هاخش الحمام والبس

_ عنيه يا سمعه

ينهـض اسـماعيل مـن فراشـه ويخـرج مـن غرفتـه ويتجـه إلى الحـمام ليبـدأ فى تحضـير نفسـه للسـفر ثـم يرتـدى ملابسـه ويخـرج لتنـاول الإفطـار مـع أولاده ثـم يهمـوا بحمـل الحقائـب والإنـصراف إلى السـيارة ويغـادر الجميـع ويتـولى إسـماعيل القيـادة قائـلا ...

اسماعيل : توكلنا على الله

تحية : الفاتحة يا محمد الفاتحة يا منى

محمد : ياللا يا حاج طريقك صحراوى

اسماعيل : لا يا حبيبى زراعى أنا ايه اللى هايودينى الصحراوى

محمد : بابا الصحراوى سالك ومفيهوش كماين كتير

اسـماعيل : طـب مانـا الزراعـى جنبـى بخطوتـين أهـو ثـم أنـا إيـه الـلى هايخوفنـى مـن الكمايـن

تحيـة : يـوه انـت لازم تجـادل وخـلاص ، مـا تريـح العيـال يـا اسـماعيل .. ده مصيـف يـا سـمعة خليـك حلـو بقـى ومتقفلهـاش والنبـى

ويتظاهـر اسـماعيل بـروح الشـباب قائـلا : حـاضر يـا توحـة عنيـة الاتنين هافتحلكـوا عالبحـرى ومـش هاقفلها

وبـدأ اسـماعيل فى القيـادة متجهـا إلى الطريـق الصحـراوى ويـشرد ذهـن كل فـرد مـن أسرتـه فى ترتيبـه الخـاص لأجـازة المصيـف التـى لا تتكـرر كثـيرا

.

وتضع ابنته منى فاصلا لحالة السكون السائدة قائلة

منى : بابا احنا فى مصيف طبعا ، مش عايزين بقى يصح وميصحش

اسماعيل : بترسمى على إيه يا مفعوصة

منى : إيه يا بابا يعنى نلبس اللى احنا عايزينه .. نتأخر ... كده يعنى

اسماعيل : لا طبعا رجلى على رجلكوا ومش هاتعملوا حاجة مش على هوايا

تقطع الحديث زوجته قائلة : آه طبعا يا حبيبى هو احنا نعرف نمشى خطوة من غيرك

وجاءت جملة تحية وكأنها حبل وصل فترة السكون الأولى بفترة ثانية إلى أن وصلوا إلى بوابة خروج الطريق الصحراوى ليبدي إسماعيل دهشته

اسماعيل : إيه هو فى إيه

محمد : إيه يا بابا ادفع الرسوم

اسماعيل : رسوم ! رسوم إيه

محمد : عشرة جنيه يا بابا

اسماعيل : آه آه طبعا

ويقوم إسماعيل بدفع الرسوم ويغادر بعيدا عن البوابة ثم ينفجر فى إبنه قائلا : ولما انت عارف ان فى رسوم بتطلعنى صحراوى ليه ما الزراعى معلهوش رسوم هوه احنا ناقصين مصاريف

منى : إيه يا بابا على عشرة جنيه

اسماعيل : طبعا انتوا حاسين بحاجة ، ثم هما عملوا الرسوم دى إمتى .. هى كل حاجة بفلوس فى البلد دى ، استرها علينا يا رب

محمد : طبعا يا بابا مانت آخر مرة سافرت فيها يجى من

خمســتاشر عشريــن ســنة

اسـماعيل : نعـم يـا خويـا انـت هاتعمـلى فيهـا ابـن بطوطـة سـافرت كام مـرة يعنـى مـن عالطريق ده

محمـد بارتبـاك : أبـدا يـا بابـا بـس سـمعت انهـم عملـوا رسـوم مـن كام سـنة

اسماعيل : ياللا الأمر لله

وينفصـل إسـماعيل بذهنـه عـن ذويـه ويغـوص في بحـر أفـكار طالمـا غـاص فيـه كلـما شـعر بضغـوط الحيـاة الطبيعيـة ، ليعـاود التفكـير فى زوجتـه التـي لم يعـد يطيـق لهـا وجـودا فى حياتـه .. فبعـد أكـثر مـن عشريـن عامـا عـلى زواجهـم يشـعر بأنهـا لا تتوافـق مـع شـخصيته وتفكـيره وأنـه يريـد امـرأة أخـرى تريحـه لا أن يريحهـا هـو فى كل طلباتهـا ، وبرغـم رفضـه واعتراضـه عليهـا إلا أنـه يشـعر فى بعـض الحـالات بأنهـا قـد عقـدت عليـه سـحرا مصنوعـا مـن عتـاة السـحرة وبأنـه لا منجـي مـن براثـن عشرتهـا إلا المـوت ، ويقـوم محمـد بإلقـاء حبـل كلماتـه لتنتشـل أبيـه مـن أعـماق أفـكاره قائـلا

محمد : إيه يا بابا احنا كده هانوصل بكره

اسماعيل : بقولك ايه أنا عمرى ماهمشى زيادة عن كده

تحيـة : معلـش يـا خويـا العيـال مشـتاقين لبحـر اسـكندرية مـد شـوية ربنـا يريـح بالـك

اسـماعيل : لا يـا تحيـة وانـا قلـت كلمـة ومـش راجـع فيهـا خـلى ربنـا يسـترها معانـا ونرجـع لبيتنـا عـلى رجلينـا

تحيـة : خـلاص يـا خويـا براحتـك بـس يـا ولاد سـيبوا ابوكـوا يسـوق براحتـه

محمد : ياللا ربنا يصبرنا

تحية : إلا قوللى يا خويا هى الشقة اللى انت واخدها ديه كام اوضه

اسماعيل : أوضتين ... ليه

تحية : أبدا أصلى كنت بافكر على نص الأسبوع اكلم نجية اختى تقعد معانا يومين والا حاجة

اسماعيل : والمصاريف يا تحية

تحية : يا خويا ماتدقش بقى .. انت عارف انها هي وجوزها بس ، ولا عندها عيل ولا تيل وبعدين ماحنا موفرين إيجار الشقة وواخدها أسبوع جدعنه من اخوك

اسماعيل : وهو عشان نوفر فى حاجة نبعزق فى التانية .. لا يا تحية

تحية : حاضر يا اخويا ومالو بس متنساش بقى نفوت عالسوق نجيب شوية لبس لزوم المصيف

اسماعيل : ليه هى مدارس يا تحية .. انتم مش محتاجين لبس

تحية بحدة : لا يا اسماعيل محتاجين شورت ولا شبشب ولا أى حاجة .. متخنقهاش علينا بقى .. كل حاجة نقول مصاريف مصاريف ، وبعدين واحد وصل لمركزك فى الضرايب كنا صيفنا كل سنة فى مارينا .. أنا عارفة انت عامل كده ليه معانا

اسماعيل : بقولك ايه .. مش هانتكلم فى الموضوع ده ليل نهار ، أنا قولتلك قبل كده انا راجل ماشى بما يرضى الله وده رزقى الى ربنا قاسمهولى

تحية : يعنى إيه يعنى هما الناس التانية حرامية ، ما اخوك اهو ما شاء الله راكب عربية احسن منك وعنده شقة فى اسكندرية ده غير الى فى ٦ اكتوبر وده كله وهو اصغر منك

اسماعيل : مالكيش دعوة واقفلى الكلام فى الموضوع ده

تحية : ماشي بس يا ريت بقى تقف عند الكافتيريا الى عند مزارع دينا أنا زهقت من طول الوقت

اسماعيل : لا أنا مش هاقف أنا هاخد الطريق دوغرى خلينا نخلص

تحيـة : لا هتقـف يـا اسـماعيل عشـان عايـزة اشـتري خضـار وفاكهـة طـازة للأسـبوع كلـه

اسماعيل مستسلما : حاضر خلاص

ويتجـه مبـاشرة إلى الكافتريـا ويوصيهـم بعـدم الغفلـة عن الوقـت وينزل كل أفـراد أسرتـه وينتـشر الجميـع باحثـا كل منهـم عـن ضالتـه وقامـت تحيـة بـشراء كل مـا يحلـو لهـا معللـة ذلـك بـأن الأشـياء طازجـة ولـن تجـد مثلهـا فى شـبرا أو الأسـكندرية وبعـد مـرور أكـثر مـن سـاعة يعـود إسـماعيل وزوجتـه وابنتـه للسـيارة ليجـدوا محمـد ومعـه رجـل يقـوم بغسـل السـيارة وينظـر إسـماعيل إليهـما نظـرة ضجـر وعـدم رضـا ، ويباغتـه محمـد قائـلا بعـد أن اسـتقل مقعـد القيـادة

محمد : أنا اللى هاسوق

اسماعيل : إنت بتحلم يا حبيبى .. انزل يا ولد

محمد : إيه يا بابا مانت جنبى وبعدين مانا معايا رخصة

ويشـعر إسـماعيل بالحـرج أمـام السـايس فيتجـه إليـه مسـتفهما : عايـز كام يابنـى

السـايس : عيـب يـا بيـه كفايـة وش الأسـتاذ محمـد الـلى كلـه سـماحة ، طريـق السـلامة يـا بيـه

فينظـر إسـماعيل إلى ابنـه بدهشـة قائـلا : خـلاص يابنـى الـلى يريحـك ثـم يتجـه الى ابنـه بحديثـه .. إيـه النصاحـة دى غسـلك العربيـة ببـلاش

محمد : عشان تعرف ان ابنك يعرف ياكل الجن

اسماعيل : جيل أبالسة بصحيح بس اوعى تكون سبته لوحده

محمد : هاه لا لا طبعا كنت واقف معاه على طول

اسماعيل : طب ياللا اتكل على الله وبالراحة وانت سايق

محمد : متقلقش يا عم اسماعيل

ويتـولى محمـد القيـادة ويبـدأ بزيـادة السرعـة شـيئا فشـيئا حتـى لا

يشعر أبوه ولكنه يفشل فى ذلك .. فاسماعيل لديه رادار أقوى من رادار المرور نفسه وتجرى مشادة حامية بينهما وتستمر حتى يلاحظ إسماعيل وجود سيارات على مدى البصر تقف وكأن الطريق مغلق فيصيح : حاسب يابنى حاسب

محمد : حاضر يا بابا لسه بدرى

اسماعيل : آه يابن الكلب هاتودينا فى داهية

ويقف محمد بالسيارة ويتضح أنها لجنة مرورية ويستمر فى السير إلى أن يصل إلى ضابط الشرطة

ضابط الشرطة : الرخص لو سمحت

اسماعيل : خير يا باشا هو فى حاجة

ضابط الشرطة : انتم ماشيين على سرعة ١٣٠ وده مخالف

ويكتم اسماعيل غيظه ويخرج الرخص خاصته

ضابط الشرطة : بس دى رخصتك أنا عايز رخصة الأستاذ اللى سايق

اسماعيل : اديله يا محمد الرخصة

محمد : ماهو ... أصل ... الرخصة مسحوبة

اسماعيل : إيه

محمد : بص يا فندم انا معايا وصل بس هو منتهى

ضابط الشرطة : يعنى هاضطر اسحب رخصة العربية أو تدفعوا مخالفة ٥٠٠ جنيه لأن الأستاذ مش لابس الحزام

اسماعيل : معلش يابنى سامحنا المرة دى

ضابط الشرطة بتهكم : ابنك !!! لا معلش يا والدى

اسماعيل : أنا بقول كده من العشم

ضابط الشرطة : لا عشم ولا غشم ، ٥٠٠ جنيه لو سمحت

ولا يستطيع اسماعيل إلا دفع المبلغ المطلوب ويقوم بتبادل الأدوار مع إبنه في القيادة ويتمتم بعبارات سخط وغضب شديدة وينصرف

بالسيارة ويبدأ المشاجرة مع ابنه

اسماعيل : يابن الكلب بتضحك عليا ، معايا رخصة يا بابا .. معايا رخصة يا بابا ، اتسحبت إمتى دى

محمد : مش فاكر

اسماعيل : طبعا انت همك إيه .. منتهى الاستهتار ، أنا عارف انت طالع كده لمين .. أكيد امك اللى علمتك البرود واللامبالاة كده

تحية بنبرة وعيد : بقولك ايه أمه مالها ان شاء الله

اسماعيل بتراجع : حسبى الله ونعم الوكيل

ولم يتحمل الموقف أى نقاش جديد ويظل الصمت سيد الموقف حتى يصل إلى الشقة بمنطقة المعمورة ويهم إسماعيل بحمل الحقائب فإذا بتحية تقول : بقولك ايه يابو محمد .. فى حموتها كده ننزل نشترى اللبس وبالمرة نتغدى بره أهو حاجة تفرح العيال

اسماعيل وكأنه ينفض هما من على صدره : حاضر يا ستى أطلع الشنط عشان اخف الحمل شوية عالعربية

تحية : خلاص ياولاد طلعوا الشنط مع بابا وهانروح نتغدى بره

منى : أيوه كده بركاتك يا ماما

ويصعد اسماعيل وابنه بالحقائب ويعودان ليستقلا السيارة ويسأل اسماعيل

اسماعيل: هاتروحوا فين ؟

وترد منى : محطة الرمل يا بابا

اسماعيل : إيه اللى هايودينا هناك ماتشوفوا حاجة قريبة

منى : لا يا بابا الحاجات هناك حلوة ورخيصة

اسماعيل : خلاص ما دام رخيصة ماشى

ويستمر اسماعيل بالسير ويدور حديث رباعي بين أطراف الأسرة حول مدينة الأسكندرية وما بها من سحر وجمال ، وعن الحرية التى

يشعر بها أولاده بهذة المدينة كأنها جنة الله الموعودة ، وبالطبع لم يخل الحديث من انتقاد إسماعيل زحامها الشديد فى أشهر الصيف وتعجبه من كثرة الأسر التى تتكبد الكثير من المصاريف فى شيء من الكماليات كالمصايف من وجهة نظره إلى أن يصلوا إلى محطة الرمل ويجد إسماعيل صعوبة فى ركن سيارته فيقرر أن يجلس بانتظارهم فى السيارة معللا بأنه لا يريد شراء شيء وأنه سيعطى المال لتحية حتى يكون تحت تصرفها ، وتسعد تحية وأولادها بهذا القرار ويفرون هاربين من أمامه حتى يختفوا عن الأنظار ، ويغلب إسماعيل النعاس ولا يشعر بشيء إلا عند قدومهم .

اسماعيل : حمد الله عالسلامة

منى : صح النوم يا راجل يا عجوز

تحية : يخيبك يا راجل كده تضحك العيال عليك

اسماعيل : ياللا ياللا مفيش وقت هاتتغدوا فين

منى : بابا هو فى مطعم حلو قوى اسمه بلبع أنا صاحبتى غادة حكتلى عليه كتير

محمد : ميه ميه يا بت يا منى هو ده الكلام

اسماعيل : أهو ما دام انت وافقت شكلى كده مش هاكل سمك وهاكل مقلب تانى

تحية : ياللا ياللا يا خويا ربنا يهديك

اسماعيل : هو فين بلبع ده

محمد : سيدى بشر

اسماعيل : إيه هو انا جاى اتعذب ولا اتغدى حرام عليكوا

تحية بحدة : ياللا بقى انت كلامك كتير كده ليه

اسماعيل : الأمر لله ..حسبى الله ونعم الوكيل

تحية : هوه الدنيا حر كده ليه ، مكنتش تجيب عربية مكيفة

تنفـع فى الوقـت ده

اسماعيل : احمدى ربنا يا تحية

تحية : حمداه .. بس هوه الواحده متعوزش الأحلى ، أخوك اهو ....

ويقاطعهـا اسـماعيل بحـدة : بقولـك ايـه هاتقعـدى تقوليـلى حسـين أخويـا وسـعيد زميـلى وانـت مـش زيهـم .. أنـا لـو عايـز ابقـى زيهـم كنـت غـيرت حاجـات كتـير أوى فى حيـاتى .. أولهـم انـت ، واتمـسى بقـى يـا تحيـة

وتصمـت تحيـة لبرهـة مـن هـذا الـرد الشـجاع غـير المعتـاد ثم تسـتجمع وتقـول : ليـه هـو انـت هتلاقـى واحـدة تسـتحمل الـلى انـا مسـتحملاه احمـد ربنـا لـو واحـدة غـيرى كانـت طفشـت مـن زمـان

اسماعيل : اتلمى يا ولية أنا على آخرى

منى : بابا .... ماما

محمد ببرود : معلش هوه الحر بيعمل كده

اسـماعيل : بـس يـا واد انـت وهيـه ... انـت يـا هانـم ناسـية احنـا كنـا فـين وبقينـا فـين ، كنـا سـاكنين فى شـقة ٦٠ مـتر فى شـارع الجـسر ودلوقتـى مـا شـاء اللـه سـاكنين فى شـقة ١٤٠ مـتر فى شـارع شـبرا وعربيـة جديـدة وربنـا سـاترها معانـا .. إيـه مفيـش حمـد أبـدا

تحية : اسمالله ، اللى زيك عنده اكتر من كده بكتير

اسماعيل : خلاص انا قلت اتلمى وخلص الكلام على كده

تلتـزم تحيـة الصمـت ولكـن عـلى غـير رضـا ويظـل الصمـت سـيد الموقـف إلى أن يصلـوا الى المطعـم المذكـور ويقـوم كل واحـد منهـم بطلـب كل مـا يحلـو لـه وفى نهايـة الطعـام يطلـب محمـد الشـيك فيـأتى نـادل إليهـم يحمـل فاتـورة ويقرأهـا إسـماعيل ويقـول : إيـه ١٢٠٠ جنيـه .. ليـه

فتوكـزه تحيـة بقدمهـا حتـى لا يلحـظ مـن فى المـكان ويخـرج اسـماعيل النقـود مـن حافظتـه وأثنـاء ذلـك يخاطبـه محمـد

محمد : بابا حط ٥٠ جنية بقشيش

اسـماعيل : نعـم خمسـين عفريـت لمـا يبقـوا يكبسـوا عـلى نفسـك ويخلصـونى منـك .. خمسـين جنيـه ليـه .. دانـا اشـفلك شـغلانه هنـا مـن بكـره

محمد : بابا متحطش اقل من ٢٥ جنيه لو سمحت .. متكسفناش

اسماعيل : حسبى الله ونعم الوكيل

وقبـل الإنـصراف يخبرهـم إسـماعيل بأنهـم لـن يذهبـوا إلى أى مـكان آخـر فالسـاعة تجـاوزت السادسـة وهـو مرهـق جـدا ، ومـا أن وصلـوا وقامـوا بتفقـد الشـقة ومحتوياتهـا ، يختـار إسـماعيل حجـرة وينـادى عـلى زوجتـه ويحـاول أن يسـتميلها قائـلا : خـلاص بقـى يـا توحـة ، نـروق بقـى خلينـا نقـضى الأسـبوع ده واحنـا مبسـوطين

تحية : ماشى ياخويا خلاص ولا يهمك

اسـماعيل : أصيلـة يـام محمـد ... بقولـك الواحـد حاسـس انـه صرف كتير النهـاردة الواحـد عايـز يحسـب حسـبته قبـل مـا ينـام .. قوليـلي صرفتـي كام فى الإسـتراحة ومحطـة الرمل

تحية : أبدا ٥٥٠ جنيه خضار وفاكهة ، ٩٠٠ جنيه لبس للعيال

اسـماعيل كاتمـا غيظـا شـديدا : زى بعضـه .. قومـي افتحـي الشـنطة الـلي فيهـا هدومـي هتلاقـي كيـس بلاسـتيك إسـود هاتيهـولي

تحية : حاضر يا اخويا

وتذهـب تحيـة لإحضـار الكيـس وتبحـث عنـه جيـدا ويلحـظ إسـماعيل بأنهـا لم تخـرج شـيئا مـن الشـنطة

اسماعيل : إيه يا ستى فيه إيه الكيس فين

تحية : مفيش اكياس خالص يا اخويا

اسماعيل : ازاى انا متأكد إنى حاطه بإيدى دورى كويس

تحية : هو كيس إيه ده يا اخويا

اسماعيل : كيس إيه !! كيس فيه خمستلاف جنيه يا تحية

تضرب تحية بيدها على صدرها قائلة : يالهوى يا اسماعيل حاطط خمستلاف جنيه فى كيس بلاستيك

اسماعيل : بقولك ايه أنا مش ناقص .. أنا نازل للبواب اسأله إن كان حد غريب طلع ولا نزل العمارة

ويخرج إسماعيل من حجرتة مسرعاً وينادى على محمد ويطلب منه أن يأتى معه ، ويستجيب محمد دون السؤال عن شيء ويصلا إلى أسفل العمارة ...

اسماعيل مناديا : يا ريس يا عم ...يا بواب

محمد : فى إيه يا بابا

اسماعيل : بس يا بني دلوقتي

ويأتى إليهم رجل نحيف أسمر الوجه تنعكس على بشرته ملامح أرض الصعيد : أيوه يا بيه

اسماعيل : مفيش حد غريب طلع العمارة

البواب : غريب ... غريب كيف يا بيه

اسماعيل : أى حد يعنى مش من صحاب الشقق

البواب : يا بيه احنا فى شهر سبعة والناس اللى عم تيجى كلها غريبة وأولهم سعادتك يا بيه

اسماعيل : يابنى انا قصدى غريب مش من المصيفين اللى حاجزين ا لشقق

البواب : لا يا بيه آنى من طلعة النهار مهملتش العمارة واصل ومفيش حد جه إلا الجماعة المصيفين

اسماعيل : خلاص يا بنى خلاص

محمد : هو فى إيه يا بابا

ووقع صوت محمد على أذن اسماعيل كطوق نجاة فيتشبث بملابس ابنه قائلا

اسماعيل : السايس ... السايس

محمد : ماله السايس

اسماعيل : إنت سبته لوحده مع العربية ؟

محمد بارتباك : لا يا بابا

اسماعيل بتوسل : قول الحقيقة يا بنى أنا مسروق منى خمستلاف جنيه

محمد : والله يا بابا أنا اديته المفاتيح يغسل العربية وروحت مفيش خمس دقايق للحمام

اسماعيل : حمام يابن الكلب تلاقيك روحت ورا واحدة وسخة زيك

محمد : لا والله يا بابا

اسماعيل : تعالى معايا

ويصعدا سويا إلى الشقة ويدخل إسماعيل والشرر يتطاير من عينيه

اسماعيل بأعلى صوته : ياللا انتى وهى لموا الشنط هانروح

وتقع الكلمة كالصاعقة على رأس زوجته وابنته

منى : إيه يا بابا احنا لحقنا

تحية : إيه يا خويا الكلام اللى انت بتقوله ده

اسماعيل : كلمة واحدة .. عايز الحق الواد السايس قبل ما يصرف الفلوس

تحية : طب اهدى كده يا خويا وروح انت ومحمد واحنا نستناك هنا

اسماعيل : أنا قلت هنسافر يعنى هنسافر

تحية متذمرة : لا يا اسماعيل ده ماسموش كلام

اسماعيل : ماسموش كلام ، طب عليا الطلاق بالتلاتة لنسافر يا تحية

وتصمت تحية نهائيا من هول الكلمة وترد عنها منى

منى : خلاص يا ماما معلش يا حبيبتى

وفى صمت تام يقوم الجميع بترتيب الحقائب ويهمون بالإنصراف ويقوم إسماعيل بقيادة السيارة بسرعة جنونية على غير عادته متجهاً إلى مكان الكافتيريا ويصل إلى هناك فى تمام الساعة الحادية عشرة مساء ويتم التقابل مع الشخص المسئول مدير المكان

اسماعيل : سلامو عليكو يا أستاذ ممكن اسأل عن السايس اللى بيقف هنا

المدير : سايس ايه يا أستاذ مفيش حد هنا بيشتغل سايس

اسماعيل وقد بدت عليه علامات الإنفعال : ازاى أنا النهاردة الصبح كان فى واحد غاسلى العربية

المدير : يا أستاذ ده كلهم عيال أرزقية ملناش دعوة بيهم

اسماعيل : ده سارق منى خمستلاف جنيه

المدير : يبقى مفيش غير إنك تبلغ البوليس حضرتك روح قسم الشرطة وهما اللى هايجبوهم دول كلهم عيال شمامين ومعروفين عند الحكومة

اسماعيل : طب ممكن توصفلى اروح القسم ازاى

ويصف المدير الطريق لإسماعيل ، ويتجه إلى القسم ويطلب من تحية أن تنتظره بالسيارة مع ابنتها وبأن يأتى محمد معه ويدخلان إلى القسم ويتم التقابل مع ضابط النوبتجية

اسماعيل : الحقنى يا باشا .. انا اتسرقت .. واد نصاب من مزارع دينا سرقنى وهو بيغسلى العربية

الضابط : اهدى لو سمحت عشان افهم منك

اسماعيل : معلش يابنى .. قصدى يا باشا ، الواحد مش عارف يتلم على أعصابه

ويحكى إسماعيل القصة بالكامل للضابط فيرد عليه بالسؤال

الضابط : انت لو شفت الواد تتقدر تتعرف عليه

اسماعيل : ايوه يا باشا وانا معايا ابنى محمد حافظ شكله كويس

الضابط : طيب انا هاعملك المحضر وهابعتك لضابط المباحث واوصيه إنه يبعت يجيب العيال اللى مسجلة عنده

اسماعيل : ربنا يكرمك ويعلى مراتبك

ويصعدان بصحبة أمين شرطة إلى ضابط المباحث ويدخلان عليه بصحبة الأمين ويطلب ضابط المباحث منهم الجلوس وانتظاره قليلا حتى يفرغ من سؤال أحد المتهمين فى قضية أخرى ليتفرغ لهم ويسمع شكواهم .. وينصاع إسماعيل لطلبه ثم ينادى رئيس المباحث على مخبره الخاص ليحضر له متهمين فى قضية أخرى

ضابط المباحث : يا فوزى يا فوزى هات العيال اللى عندك

ويدخل فوزى بصحبة شابين مقيدين بقيود حديدية وبمجرد دخولهم يهب إسماعيل واقفا ويتجه نحو أحدهم قائلا

اسماعيل : أأو هوه ده يا باشا ، تحيا مصر تحيا مصر .. المال الحلال مبيضعش الحمد لله

وينفعل ضابط المباحث : جرى إيه يا جدع انت .. أنا قولتلك استنى في إيه

اسماعيل : هو ده اللى سرقنى يا باشا

ويتنهد ضابط المباحث قائلا : يخرب بيتك يا واد يا صامولة إيه انت عملت كام النهارده

يرد اسماعيل : عمل خمستلاف جنيه يا باشا .... رد عالباشا مش انت اللى سرقتنى

السايس : حرام عليك يا بيه طب دانا مختش حق غسيل العربية

اسماعيل : غسيل !! هوه فى حد يغسل عربيته بخمستلاف جنيه يا ضلالى

ويحاول ضابط المباحث أن يتدخل ويفض الإشتباك ويهدئ من روع اسماعيل ويعده باستعادة المبلغ ويطلب منه الانتظار بالأسفل عند ضابط النوبتجية لحين إنهاء الإجراءات

ويمتثل إسماعيل وينتظر حتى يأتيه أمين شرطة ويقوم باستلام نقوده والتوقيع على ما يفيد ذلك ويصطحب ابنه محمدا للخارج إلى السيارة وهو يردد الحمد لله الحمد لله

تحية : إيه جبت الفلوس يا خويا

اسماعيل : الحمد لله يا تحية المال الحلال مايروحش أبدا

تحية : طب والنبى زى ما ربنا جبر بخاطرك اجبر بخاطرنا ونرجع اسكندرية

اسماعيل : اسكندرية !!! حسبى الله ونعم الوكيل

تمت..

-9-

تنهـد تنهيـدة عميقـة مستسـلما لأقـدار حياتـه وأدرك في صراع ذكرياتـه أنـه عندمـا كان .. مـا كان إلا مـا يكـون ، ومـا عـاد لـه إن عـاد أن يعـود .

حسرة الظابط

عـاد لتـوه مـن صفـوف الميمنـة بخدمـة خـط سـير السـيد رئيـس الجمهوريـة تأمينـا لزيـارة سـيادته صحبـة السـيد رئيـس دولـة روسـيا لقداسـة البابـا تـواضروس الثـاني بالمقـر البابـوي بالكاتدرائيـة المرقسـية بالعباسـية .. عـاد ليرتمـي وسـط أحضـان مقعـد مكتبـه نافضـا ملابسـه مـن غبـار المعركـة التـي خاضهـا لتـوه ، فالخدمـات الخارجيـة بالنسـبة لـه معركـة حربيـة يمـارس فيهـا كل الطقـوس العسـكرية مـن كـر وفـر وتسـتر واسـتتار ولا تخلـى مـن بعـض المناوشـات وقليـل مـن المفاوضـات .. كـر عـلى جيـوش المـارة المحاولـين اخـتراق خـط السـير ، وفـر مـن ضابـط مـشرف الخدمـة حتـى لا يـأتي إليـه بتعليـمات تطبيقهـا يضاهـي دروب الخيـال ، وتسـتر عـلى سـيارة – واحـد معرفـة – قبعـت بأقـصى يمـين خـط السـير ، واسـتتار مـن سـيارة مديـر الأمـن الـذي يعتنـق عقائـد تجعـل مـن ضابـط الشرطـة بريئـا مـن أي حـق مذنبـا في كل واجـب ، ومناوشـات مـع قائـدي السـيارات ومفاوضـات مـع زملائـه عـبر جهـاز اللاسـلكي لمنحـه عـشرة دقائـق لأداء الفريضـة .. خلـع عـن رأسـه الأفـكار وغطـاء الـرأس ، وأزال مـن عـلى كتفـه الهمـوم والرتـب العسـكرية وتنهـد تنهيـدة شـقاء وملـل ، قـام بالعبث بدوسـيه العـرض أمامـه لتقـع عيناه عـلى تلـك الورقـة التـي ألبسـته الأفـكار ووضعـت عـلى كاهلـه الهمـوم مـن جديـد .

حملتـه الأفـكار والهمـوم إلى المـاضي البعيـد .. عندمـا تخـرج مـن كليـة الشرطـة منـذ عشريـن عامـا ، حملتـه إلى طموحـه الـذي كان .. وأعـادت إليه أحلامـا شـابة في هيئـة امـرأة عجـوز أعيتهـا تحكـمات الرؤسـاء ومعتقـدات المرؤسـين ، تذكـر طـرب كلمـة حـضرة الظابـط داخـل أذنيـه حـين سـمعها

لأول مـرة ، تذكـر أيـام خدمتـه الأولى في مديريـة أمـن أسـيوط حـين كان يطـارد الثـأر وتجـارة السـلاح وتجـارة المخـدرات ومـرت أمامـه سـنوات خدمتـه بمديريـة أمـن القليوبيـة مطـاردا جرائـم القتـل والمشـاجرات وتسـتقر ذاكرتـه بمديريـة أمـن القاهـرة التـي طاردتـه فيهـا كل الجرائـم والموبقـات .

تذكـر افتراشـه زراعـات إحـدى قـرى مركـز البـداري كامنًـا لأحـد الهاربين مـن تنفيـذ حكـم الإعـدام لقتلـه ابـن عمومتـه أخـذًا بالثـأر ، تذكـر اقتحامـه مبنـى متهـدم مهجـور بصحـراء الجبـل الأصفـر بمركـز الخانكـة مطـاردًا ثلـة مـن الأشـقياء الذيـن كونـوا تشـكيلا عصابيـا لسرقـة السـيارات ، تذكـر سـاعات وسـاعات قضاهـا في تأمـين مواكـب سـير للسـادة الـوزراء والضيـوف الدبلوماسـيين وخدمـات محافـل ومناسـبات لا تنقطـع بشـوارع العاصمـة .

تذكـر شـهورا عجافـا قضاهـا عـام ٢٠١١ يتـوارى خلـف لبـاس مـدني خشـية التعـرف عـلى وظيفتـه ، تذكـر عزوفـه عـن التجمعـات العائليـة متجنبـا التعـرض لسـهام اللـوم والشـماتة مـن أقـرب الأقربـين ، تذكـر هجـر الأصدقـاء في أي حديـث حتـى لا يلـج حـوارا نهايتـه هزيمـة الـرأي وسـقوط صديـق مـن قائمـة أصدقائـه .

تذكـر مأموريـات اسـتثنائية بمديريـة أمـن شـمال سـيناء وليـالى يفـوح نسـيمها برائحـة المـوت ، تذكـر رسـائل زملائـه الشـهداء لذويهـم لحظـة الإحتضـار ، تذكـر دمـوع زوجتـه لحظـة الرحيـل وابتسـامة البـراءة عـلى وجنتـي أطفالـه لحظـة عودتـه .

لقـد تذكـر حـين تذكـر أن لـه زوجـة وأطفـال وبيتـا مسـئول منـه ولـو أن هنـاك محاكـمات تأديبيـة اجتماعيـة لنـال جـزاءً عائليـا نتيجـة تقصيره في مسـئوليته الإشرافيـة عـلى هـذا المنـزل ، تذكـر ضيـق ذات اليـد عـن الوفـاء بمتطلبـات زوجتـه وعيالـه ، تذكـر انعـدام حضـوره أيـة مناسـبات اجتماعيـة معهـم لانشـغاله الدائـم بأعبـاء وظيفتـه ، تذكـر مشـاعرا دافئـة لم يبدهـا

لأسرته ، تذكر معاملات اقتصرت على هات فلوس أو هات معاك .

طال شروده وحلّقت روحه في زمان غير الزمان وتساءل لماذا الآن !؟ أبهذه السرعة تنقضي سنوات العمل !؟ هل قصرت في أداء وظيفتي !؟ هي لم تكن وظيفة بالنسبه له أبدا .. كانت حياة كاملة عاشها بكل تفاصيها بكامل مشاعره من هدوء وصبر وغضب وانفجار .. عاشها بحلم وطموح وعثرة ونجاح ، ذاق عسلها وتحمل حنظلها ، عاش وما ظن أن النهاية سريعة بهذا الشكل فهو ما زال يملك الطاقة ليحلم بهمه ويحمل همومه .

مر أمام عينيه حلمه محمول في صندوق خشبي وقد كُفّن بصورة شخصية له بالملابس العسكرية الرسمية وتشيعه في حزنٍ سنوات شبابه وطموحه ، توارت دموعه تحت ستار جفنيه وخفق قلبه كمداً ، تمنى لو عاد إلى أيام المراهقة الأولى كي يستعيض حلمه الفاني بحلم يصاحبه حتى مماته .. تساءل لماذا لم يفعل مثل أخيه ويرث تجارة والدهما .. واستنكر لحظة قراره حين تنازل عن مجموعه الكبير في الثانوية العامة وعن مرافقة حبيبته إلى كلية الطب لأجل حلم فانٍ .. تعجب من رفضه فكرة صديقه حين أبلغه عن عزمه التقدم لإحدى الوظائف القضائية حتى يهرب من جحيم العمل بالشرطة ، واندهش من دهشته حين علم بسفر زميل عنبره بالكلية إلى إحدى الدول العربية مستغلا مهاراته باحدى الفرق المتخصصة في الدفاع المدني هربا من شح الرواتب في مصر ، تنهد تنهيدة عميقة مستسلما لأقدار حياته وأدرك في صراع ذكرياته أنه عندما كان ما كان إلا ما يكون ، وما عاد له إن عاد أن يعود .

عاد لقراءة الورقة في يديه التي تحمل عنوان - استمارة رغبة - وتسمرت عيناه على السؤال الذي حمل إليه الشجن والذكريات – هل ترغب في الاستمرار في العمل – واحتار خلده بحثا عن الإجابة

المثاليـة لهـذا الامتحـان الصعـب ، هـل يجيـب بنعـم بحثـا عـن تحقيـق حلمـه وسـط زحـام سـنوات قادمـة أم يجيـب بـلا ليحـاول فيـما تبقـى مـن عمـره أن يصلـح مـا أفسـده حلمـه عليـه .

أطـل بعقلـه مـن شرفـة المسـتقبل وشـاهد زوجتـه تقـوم بحسـاب مبلـغ مكافـأة نهايـة الخدمـة محاولـة تقسـيمها عـلى الإلتزامـات المسـتقبلية لأبنائهـما ، ورأى نفسـه جالسـا في مكتـب أحـد أصدقـاء العمـل القدامـى ممـن اسـتمر بالخدمـة وقـد تجاهـل وجـوده ومطلبـه .

وعـاد بعقلـه ليطـل عـلى الجانـب الآخـر مـن الشرفـة لـيرى نفسـه أمـام صـف طويـل في إحـدى المقـار الإنتخابيـة بإحـدى المـدارس محـاولا إقنـاع الرجـال بالإلتـزام والصمـت حتـى تمـر العمليـة الإنتخابيـة في سـلام ، وبحـث عـن زوجتـه وعيالـه في هـذا الجانـب مـن الشرفـة إلا أنـه لم يجدهـم أبـدًا .

جـاء صـوت أمـين الشرطـة لينتزعـه مـن مسـتقبله ويعيـده إلى حـاضره قائـلا : لا مؤاخـذه يـا باشـا .. دوسـيه العـرض فيـه ورقـه للسـيد المأمـور اتعرضـت عـلى حضرتـك بالغلـط ، ليقـوم أمـين الشرطـة بـدوره بسـحب اسـتمارة الرغبـة مـن أمامـه ويتركـه في هـدوء ململـمًا الفـوضى التـي تركتهـا الورقـة !

تمت..

-10-

ما شاهدته هذا اليوم لم يكن مثارا للتأفف أو مجالا لتقمص أدوار وهمية .. وأبدا لم يكن عاديا بالنسبة لي ، قمت بفحص الكثير من الجثث بالمستشفيات .. جثث قُطّعت أوصالها .. وجوه طُمست معالمها .. أطراف قمت بإعادتها لجسدها بعد انفصال ، لكن أمر هذه الجثة لم يكن كغيرها .

تقرير وفاء

بخطوات رشيقة تكاد تلامس الأرض .. تجاوزت درج مبنى مصلحة الطب الشرعي القابع بميدان لاظوغلي بمنطقة وسط البلد بالقاهرة ، لم أملك الصبر على انتظار مصعد كهربائي قد بدا عليه علامات الشيخوخة التي لا تجدي معها أية عقاقير ، ولم أمتلك الوقت أو الجرأة لتوبيخ عامل المصعد لقيامه بتعليق المصعد عن العمل لتدخين سيجارته الكليوباترا بالدور الثاني بجوار البوفيه واحتساء خمسينة الشاي المفضلة .

الحدث جلل والأمر يبدو خطيرا ، لأول مرة في تاريخ حياتي المهنية يقوم رئيس المصلحة بانتدابي لفحص إحدى الجثث بمكان الحادث ، فهذه المهام تذهب لأصحاب الشيب فقط ثقة في خبراتهم ، بيد أن هذه المهمة قد جاءت لي لأن اليوم يوم جمعة وأصحاب الشيب يقدسون عطلة الجمعة أكثر من صلاتها .

وما أن تجاوزت أبواب المصلحة قمت باستدعاء سيارة أجرة عبر تطبيق خاص على هاتفي حتى لا أقع فريسة لجشع قائدي التاكسي ، لتأتيني السيارة في خلال دقائق قليلة لأقوم بدوري نحو إرشادها لمقصدي ١٩ شارع راتب باشا بحي شبرا ، وحمدت الله كثيرا على أن السائق كان يعلم العنوان جيدا ولم يطلب مني عونا في وصف الطريق ولم يطلب عونا من خرائط جوجل التي تقف عاجزة أمام شوارع مصر وبدلا من أن تهديك تُدهيك .

تصارعت الأسئلة في رأسي عن ماهية الجثة فهل هي رجل أم سيدة.. شاب أم عجوز .. وفاة طبيعية أم شبهة جنائية ، لأنتبه إلى

الطريـق وأدرك أننـا عـلى وشـك الوصـول ليحدثنـي صـوت بداخـلي مجيبـا يـا خـبر بفلـوس بعـد شـارعين هيبقـى ببـلاش .

لم نتكلـف عنـاء السـؤال عـن رقـم ١٩ فسـيارات الشرطـة بالشـارع وتجمهـر النـاس أرشـدني إلى مـكان العقـار ، أكيـد هنـا رقـم ١٩ .. هـي عربيـات الشرطـة هتكـون واقفـه هنـا ليـه .. قلتهـا محدثـا السـائق في حـماس ، غـادرت السـيارة في هـدوء بعـد دفـع الأجـرة المقـررة لأتجـه نحـو أمـين الشرطـة أسـفل العقـار الـذي اصطحبنـي إلى الشـقة محـل المأموريـة .

عقـار قديـم يتجـاوز عمـره السـتين عامـا ولـو أن قانـون الأقدميـة يـسري في حـق العقـارات لأصبـح هـذا العقـار رئيـس مصلحـة الشـارع ، درج العقـار يبـدو متهالـكا كمصعـد المصلحـة لكـن عـلى الأقـل لا يوجـد بـه عـم مسـعد عامـل المصعـد السـخيف ، رائحـة نفـاذة أعرفهـا جيـدا تفـوح بالمـكان منـذ ولجـت إلى مدخـل العقـار وتزيـد تدريجيـا بصعـودي ، أبلـغ مدخـل الشـقة صحبـة أمـين الشرطـة الـذي يقـوم بتعريـف ضابـط الشرطـة عـلى شـخصيتي ليقـوم الأخـير بالترحيـب بي واصطحـابي إلى أحـد غـرف الشـقة .

كنـت عـلى وشـك أن أمسـك بمنديـلي لأضعـه عـلى أنفـي كـما يفعـل ممثلـو السـينما .. ولكننـي لم أذكـر أني أمسـكت منديـلا مـن القـماش طيلـة حيـاتي ولا أعـرف مـن أيـن يأتـون بـه في السـينما ، وجـال بخاطـري أن أصطنـع تقيـوءً مـن فاجعـة المشـهد لكننـي تذكـرت بـأني لم أتنـاول إفطـاري بعـد ومـا عـادت معـدتي تحتفـظ بأيـة مخلفـات لتلفظهـا ، وربمـا ينتهـي الأمـر إلى سـخرية مـن حـولي .

مـا شـاهدته هـذا اليـوم لم يكـن مثـارا للتأفـف أو مجـالا لتقمـص أدوار وهميـة .. وأبـدا لم يكـن عاديـا بالنسـبة لي ، قمـت بفحـص الكثـير مـن الجثـث بالمستشـفيات .. جثـث قُطّعـت أوصالهـا .. وجـوه طُمسـت معالمهـا .. أطـراف قمـت بإعادتهـا لجسـدها بعـد انفصـال ، لكـن أمـر هـذه الجثـة لم يكـن كغيرهـا .

جثة قد اتخذت من السرير متكئا .. لو اطّلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منها رعبا ، كانت الجثة على وضع جلسة الإضطجاع التي لا تراها إلا في الأحياء .. ترتدي لباسها كاملا الذي تلطخ بسوائل أحشائها وما دلني على جنسها في النظرة الأولى إلا غطاء رأس كطرحة الصلاة التي ترتديها النساء .

الغرفة بالكامل هادئة ولا يوجد آثار لأي تصرف غير طبيعي حتى تكون هناك شبهة جنائية .. تلفاز على وضع التشغيل في مواجهة الجثة تماما كان شاهدا على احتضارها ووفاتها ، وكوب ماء فارغ قد استقر بجوار الجثة على السرير وبالقرب منه شريط دواء يبدو أنه لعقار الكونكور لعلاج نوبات الضغط العالي ، وصورة فوتوغرافية في يد الجثة طُمست معالمها بفعل قسوة سوائل التحلل وتوارت وجوه شخصياتها خجلا تحت أقدام الذباب الأزرق .

انتزعني ضابط الشرطة من هذا المشهد قائلا : معلش يا دكتور عارف انك هتاخد وقت في شغلك بس عايز اعرف بسرعة توقيت الوفاة تقريبا عشان اقدر اتحرك واشتغل .

أجبته في الحال : الوفاة حصلت من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر .

لم تكن الإجابة تحتاج إلى فحص دقيق ، حالة الجلد المتآكل والديدان والذباب الأزرق والرائحة تخبرني بذلك ، ربما كانت أقل من هذا إذا كنا في الصيف لكن برودة الجو لن تساعد على سرعة التحلل .

جولة نظراتي داخل محيط الغرفة أجهزت على مأموريتي سريعا ولكنها لم تجهز على حكاية المرأة بعد ، النظرة السريعة ستكتب في تقرير الوفاة أن الجثة لسيدة في أوائل العقد الثامن من عمرها وسبب الوفاة نوبة قلبية حدثت منذ عشرين يوما ولا توجد شبهة جنائية في وفاتها .

بينما تختبئ حكايتها خلف صورة متآكلة في قبضة اليد المتيبسة ، أغلب الظن أن الصورة من الصور التقليدية التي تجمع أفراد الأسرة اصطفافا بإحدى المناسبات ، وجوه أبطال الصورة غير واضحة المعالم في عيني ولكنها وضحت تمام الوضوح في قلبي عند قدومهم واحدا تلو الأخرى ، إنها كتيبة الأبناء .. شابان وشابتان تتباين أعمارهم بين العقدين الخامس والسادس ، الرجال في وجوم ودهشة والنساء في انهيار تام .

ما بين أنّات الإناث وكلمات الرجال المتقطعة لم يصل إلى قلبي إلا سؤال الضابط لهم .. كيف لم تتواصلوا مع أمكم منذ شهر كامل ولو لمرة واحدة !؟

لم أفهم السؤال أو بالأحرى لم أستوعب الحدث ، فهل هناك أصلا من يقطع حبل الوصال عن أمه لهذه المدة ؟ هل هناك أسباب غير الموت أو غياب العقل تكون مبرراً عن انقطاع التواصل مع أمي أو أبي ؟ ، لم أجد ردا أو إجابة على أسئلتي كسؤال الضابط تماما ، بل وقفوا أربعة من الأبناء وخامسهم عقوقهم موقف الخزي والخيبة .

لم ينتظر الضابط كثيرا لتلقى الإجابات فالجريمة واضحة وصمت الأبناء كان اعترافا صريحا منهم على اشتراكهم في ارتكاب الجريمة ، واكتفى بالقاء عقوبة اللوم والتأنيب عليهم قائلا : اتفضلوا روحوا هاتوا تصريح الدفن وكملوا الاجراءات والّا عايزين الجيران اللي بلغونا يكملوا جميلهم ويعملوا الإجراءات بدالكم !!

تنسحب قوات الشرطة شيئا فشيئا ، ويتسلل الأبناء بعيدا عن سهام النظرات اللائمة للجيران ، ويلملم الجيران فضولهم وتغادر الجارة تلو الجار بين ممصمصةٍ للشفاة وبين محوقلا للإله .

فرغت من كتابة تقريري بأن الجثة لسيدة في أوائل العقد الثامن من عمرها ، سبب الوفاة نوبة قلبية ، وقت الوفاة منذ عشرين

يومـا ، ولا يوجـد شـبهة جنائيـة في وفاتهـا ، ولكـن هنـاك تقريـرا آخـر لم ولـن يكتـب فالجثـة لأم طاعنـة في السـن في العقـد الثامـن مـن عمرهـا ، وقـت الوفـاة منـذ عشريـن يومـا ، سـبب الوفـاة طعنـات قلبيـة متكـررة تركـت جراحـا متعـددة نافـذة وغائـرة أودت بحيـاة القتيـل ، وهنـاك شـبهة أخلاقيـة في الوفـاء .

تمت..

-11-

تحسست قدماي موضع خطواتي في شارع بات غريبا بعد أن تغيرت معالمه التي حُفرت في ذاكرتي عبر عقود طوال ، شيئا فشيئا أقترب من مسجد السيدة زينب .. وتبتعد هي بمسجدها عن مريديها ، فما كان مريدوها يريدونها ولكنهم أرادوا إحياء ذكرى فأردوها .

في حضرة رئيسة الديوان

البارحة ساقتني الأقدار إلى حي السيدة زينب لشراء لفافات الرقاق والسمبوسك حيث اعتدت أن أبتاعها من أحد الحوانيت لجودتها المعروفة ، وحين طاوعت أقداري للذهاب لم أكن على علم بأنني على موعد مع مشاهدة وحضور الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب .

حين مررت بسيارتي جوار مستشفى أحمد ماهر التعليمي ، ارتبت من حركة المرور التي لا تتحرك ، وبدأت الظنون تحدثني عبر وجوه المارة غير المألوفة على المنطقة ، وبدأت أدعو الله أن تخالف ظنوني الواقع إلا أن ذلك لم يحدث وتماهت ظنوني مع واقعي لأقرر عدم الإستمرار في القيادة وأن أُتم مقصدي مترجلاً تفادياً للزحام والعطلة .

أطلقت عيني مد بصري ورحت أنظر على الشارع الطويل الذي اكتظ بألوانٍ متباينةٍ من البشر ، أسمر البشرة وأبيضها .. أسود الشعر وأشهبه .. نساء ملونات وأخرى زانت الحشمة وجوههن .. عمامة بيضاء على وجه رجل صعيدي وبدلة أفرنجية يرتديها رجل من وجهاء البندر .. شيوخ وأطفال .. عقلاء ومجاذيب ، وكأن البشر باتوا من كل حدب ينسلون .

تحسست قدماي موضع خطواتي في شارع بات غريبا بعد أن تغيرت معالمه التي حُفرت في ذاكرتي عبر عقود طوال ، شيئا فشيئا أقترب من مسجد السيدة زينب .. وتبتعد هي بمسجدها عن مريديها ، فما كان مريدوها يريدونها ولكنهم أرادوا إحياء ذكرى فأردوها .

سمعت كثيرا عن مظاهر الليلة الكبيرة للموالد والليالي الصوفية وما شاهدتها قط ، وفي تلك الليلة أبصرت ما سمعته أذناي وعشت

ما جال بخاطري من تصورات خيالية ، إلتقطت عدسات عيني لقطات لصور متشابكة إن وضعتها في ميزان المنطق والعقل اختل .

على جانبي الطريق يمينا ويسارا .. أمام عيني وخلف ظهري بما طويته من خطوات ، لوحات كثيرة للطرق الصوفية المختلفة .. فهذه للطريقة الشاذلية وهذه للوهابية وتلك للغمرية وأخرى للأشراف المهدية ، إلا أنه استوقفتني لوحة قد خُط عليها « خدمة السيدة نفيسة « ولبرهة ظننت أن السيدة نفيسة تسجل حضوراً في ليلة جارتها أو ربما جاءت لرد زيارةٍ سابقةٍ منها ، وسرعان ما انتبهت إلى أنها مخطوطات من أشخاص تحيةً وإجلالاً للذكرى وصاحبتها .

تركت جسدي وسط أمواج المارة كقطعة خشبية على سطح بحر هائج .. تحتضنها موجة لتلفظها إلى أخرى .. ويلقي بها المد خارجا ليقوم الجزر بسحبها وإعادتها ، حاولت أن أصل إلى أقصى يمين الطريق على الرصيف علّي أبتعد عن أمواج المارة المتلاحقة لأجد بركة من الأجساد راكدة بين جالس هائم ونائم متخذاً من الأرض مرقدا .

حاولت أن أشبع عيني برؤية مشاهد لا أعتقد أني سأعاود مشاهدتها ، وحاولت أن أقتل فضول يعتريني حينما شاهدت مسرحاً وقد اعتلاه شخص ذو جلباب وعمامة مألوفة لدي .. معقول هل هو بشحمه ولحمه !! نعم نعم أكيد هو فهذا مكانه الطبيعي وهذه ليلته .. ارتميت وسط الأمواج ثانيةً مهرولاً صوب المسرح وشكّي يسبقني ساعياً إلى يقيني ، حتى أصبحت على بعد خطوات من المسرح الذي بات مستقراً في نهر الطريق .. آآآآه يا إلهي ما هذه الصدمة إنه ليس هو هذا ابنه الذي ما ورث أباه إلا في العمامة البيضاء والجلباب الصعيدي .

لم يكن لدي خيار إلا العودة لبحر المريدين تتلقفني أمواجه وتحط بي أينما شاءت ، لتقذف بي هذه المرة إلى مسرح آخر ولكنه أصغر من سابقه وقد اعتلته سيدة محجبة ترتدي عباءة بيضاء مطرزة بصفائح

صفـراء وإن شـئت قـل أنهـا صفائـح ذهبيـة ، كانـت هـي الأخـرى تغنـي أغنيـة الحـب كلـه ولكـن بمنظـور صـوفي حتـى لا تخـرج عـن إطـار قدسـية الليلـة وصاحبتهـا !! ولا أنكـر بأننـي كنـت أنتظـر أن أرى فيهـا حسـنات حبيبـة رحيـم في مسلسـل الليـل وآخـره ولكننـي لم أرى فيهـا إلا الليـل وآخـره .

جـاوزت المسـجد والميـدان فهـدأت الأمـواج المتلاحقـة إلى أن تحـررت منهـا وكأننـي وصلـت أخـيرا إلى بـر أو مـرسى ، لأجـد عـلى الجانـب الأيمن من الطريـق مقهـى تجلـس بـه بعـض العائـلات وثلـة مـن أنصـاف النجـوم مـن الممثلـين والممثـلات ، أطلقـت عينـي باحثـاً عـن مقعـدٍ شـاغرٍ إلا أنهـا عـادت خاليـة الوفـاض .. فنظـرت الجانـب الأيمـن مـن الطريـق لأجـد مجموعـة مـن رجـال الشرطـة وقـد جلسـوا وكأن عـلى رؤسـهم الطـير ، وقـد قـرأت حديـث نظراتهـم الشـاردة قائلـةً مـا بالنـا وهـذه الخدمـة المقيتـة المملـة .. مـا عملنـا ضباطـا لحراسـة ثلـة مـن المجاذيـب وكثـير مـن المهاويـس .

تذكـرت سـبب مجيئـي ولكـن الأمـر بات مـع النسـيان سـواء .. فالحانوت مغلـق وربمـا صاحبـه مـر بجانبـي أو دهسـت قدمـاه قدمـي وسـط الزحام ، وبـات عـليّ لزامـا أن أعـود مـرة أخـرى وسـط بحـر المريديـن لأصـل لسـيارتي .. يـا لـه مـن قـرار صعـب ومهمـة شـبه مسـتحيلة ولكـن عـليّ أن أخوضها .

ولكننـي قـررت أن أُقـرض جسـدي قسـطاً مـن الراحـة وأُريـح سريـرتي بالولـوج للمسـجد لأداء ركعتـين قربانـاً واحتسـاباً للـه ، توضـأت وأقمـت صـلاتي وهممـت بالإتـكاء عـلى عمـود بالمسـجد للراحـة .. فـإذا بي أرى سـيدة ذات وجـه بهـيٍّ وضّـاء ترتـدي عبـاءة خـضراء فضفاضـة تتجـه نحـوي وتجلـس أمامـي مُرحبـةٍ وباسـمةٍ ...

_ السلام عليكم .

_ وعليكم السلام .

_ غريب ؟

_ لا .. يمكن أن تقولي زائرا ، من أنت ؟
_ أنا زينب بنت علي بنت أبي طالب .
_ وهل أنت حقا هنا أم في دمشق كما يقولون ؟
_ وما يهم في ذلك .. إنني مؤكد تحت الثرى بين يدي عليم قدير .
_ وهل أنت راضية عما يحدث حولك ؟
_ هـون عـلى نفسـك يابنـي .. لا توجـد خطيئـة ولا معصيـة لم ترتكـب في عهـد الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام .. فنحـن بـشر وكل بنـي آدم خطّـاء وخـير الخطّائـين التوابـون .. اتركهـم علّهـم يتوبـون .
_ ولكن هذا شرك بالله .
_ ومـن قـال ذلـك .. ألم تسـمع أحاديـث النبـي عليـه الصـلاة والسـلام في خطـورة تكفـير المسـلم ؟
_ ولكن ما يفعلونه ليس من الدين في شيء .
_ يـا بنـي إنمـا الأعـمال بالنيـات .. علّهـم يفعلونـه إرضـاءً للـه ورسـوله ، وهيـا أفـق مـن غفوتـك فلقـد نلـت مـن الراحـة قسـطا لا بـأس بـه .
سرت في جسـدي قشـعريرة تُـشرق عينـي عـلى إثرهـا ، وأُزيـح غشـاوة باتـت عـلى عقـلي لأُعيـد إدراك الزمـان والمـكان ، وهممـت منصرفـاً إسـتعداداً للعـودة .
وفي طريـق عـودتي التقطـت عينـي صـورة أخـرى ولكنهـا مختلفـة ، فهـذه المـرة الصـورة لأجسـاد متراصـة في جميـع شرفـات العقـارات بالميـدان وبطـول شـارع بورسـعيد ، أسرة بالكامـل تقـف في هـذه الشرفـة وهـذا رجـل يختـلي بسـيجارته في تلـك الشرفـة وهنـاك في الشرفـة البعيـدة فتـاة قـد أمسـكت بهاتفهـا لتلتقـط بعـض مـن مشـاهد هـذه الليلـة ، ومـا فهمـت هـل يقفـون احتفـالا أم فضـولا أم للدعـاء بـأن يخلصهـم اللـه مـن هـذا الضجيـج .
ومـرة أخـرى تحملنـي الأمـواج ولكـن طريـق العـودة أمواجـه أعتـى

وأشـد ، نجحـت محـاولاتي في أن أسـبح ضـد التيـار للحظـات إلى أن بـاءت بالفشـل عندمـا واجهـت سـد المـسرح المنيـع ، مـا زال المنشـد ابـن المنشـد يقـف بطلّـةٍ ليـس بهـا أي قبـول وأمامـه جمهـوره يطـوّح برأسـه يمينـا ويسـارا إن رأيتهـم حسـبتهم سـكارى ومـا هـم بسـكارى ولكـن مُتيّهـم منشـد بحديـث طـروب .

غافلـت أمـواج القادمـين واسـتملت فلـول العائديـن حتـى عـدت حيـث بـدأت .. تنفسـت الصعـداء وحمـدت اللـه كثـيرا عـلى العـودة ونظـرت خلفـي لالتقـط صـورة أخـيرة بهاتفـي لمشـهد الليلـة ، ولكـن مـا هـذا أيـن الهاتـف .. آآآآآه لقـد غـرق في بحـر المريديـن فكيـف لم أدرك أن جسـدي سـيطفو عـلى سـطحه ولكـن قطعـة معدنيـة صغـيرة سـتغرق وتتـوه بـين أمواجـه .

تمت..

كعادتي في هذا الكتاب وسابقه
أراهن على أن القارئ سيجد نفسه بطلا لإحدى حكاياته ..
أتمنى ألا تكون بطلا لقصة وحيد القرن ..
ولكن اطمئن فمثل هذه الشخصيات لا تقرأ

أحمد ضياء الدين ...
كاتب مصري تخصص في مجال القصة القصيرة
وله مؤلف سابق مجموعة قصصية بعنوان دعاة لا يعرفون الفضيلة
وهذا هو المؤلف الثاني له ...

الفهرس

مقدمة خارج السياق ٥
إهداء ٩
وحيد القرن ١٣
في خان المعز ٢١
رسالة ستغير العالم ٣٣
كوتشينة ٤١
غيوم في سماء المنزل ٤٧
فاطمة العذراء ٥٣
إحذر .. لا تسلك هذا الطريق ٦٩
اسكندرية صد رد ٧٧
تقرير وفاء ١٠١
في حضرة رئيسة الديوان ١٠٩